

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

موسوعة الخطب العصرية

الجزء السادس

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

بوزارة الأوقاف المصرية

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد :

فيسرنا أن نقدم للسادة الأئمة والخطباء والمثقفين والمعنيين بالشأن الدعـوي في مصر والعالم الجزء السادس من الخطب العصرية الذي أعدته الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة بوزارة الأوقاف تحت إشرافنا ومراجعتنا.

وقد تنوعت موضوعات هذا الجزء ما بين قضايا إيمانية كالحديث عن الإيمان وأثره في تحقيق السكينة للفرد والمجتمع ، والقرآن الكريم وأثره في تقوية الجوانب الإيمانية ، وقضايا سلوكية وتربوية وأخلاقية وفكرية ، كالحديث عن العدل ، والشهامة ، والبر والوفاء ، والجوانب الإنسانية في خطبة حجة الوداع، والفهم المقاصدي للسنة النبوية ، وتقديم المصلحة العامة على الخاصة ، وقضايا تخص الأسرة والمجتمع كالحديث عن الضوابط الشرعية للإنجاب وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة ، ورعاية المسنين وحماية حقوقهم ، ونعمة الماء وضرورة المحافظة عليها وترشيد استخدامها ، كما تضمن عددًا من خطب المناسبات مع مراعاة ما يقتضيه فقه الواقع في تناولها.

وقد آثرنا في هذه الخطب أن تكون في إطار سماحة الإسلام ووسطيته، بعيدًا كل البعد عن جميع ألوان التشدد والغلو والإفراط أو التفريط ، محققة لرسالة المسجد ، تجمع ولا تفرق ، وتهدف إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد ، من منطلق أن شرع الله (عز وجل) قائم على مراعاة هذه المصالح، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله وبما يؤدي إلى تشكيل وعي ديني صحيح ورشيد ومستنير ، وحس وطني صادق ونبيل.

كما راعينا السهولة واليسر ، والبعد عن التقعر والتكلف ، سائلين الله (عز وجل) أن يكتب لهذا العمل القبول ، وأن يكون زادًا علميًّا وفكريًّا ومعرفيًّا في مجال الثقافة الإسلامية الرصينة ، وأن يكون إضافة متميزة للمكتبة الدعوية ، في إطار دور مصر الريادي في نشر الفكر الوسطي المستنير وترسيخ سماحة الإسلام ، وإبراز معالمه الحضارية للبشرية جمعاء.

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف

الإسلام دين الإنسانية والسلام

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فإن الإسلام دين يحمل كلَّ معاني الإنسانية والرحمة والسلام للناس جميعًا، والإنسانيةُ إحدى خصائصه التي ارتبطت بأحكامه وتشريعاته، وتأكيدًا على معاني الإنسانية خلق الله الناس جميعًا من نفْس واحدة ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...} [النساء : ١] ، وقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، فمنذ اللحظة الأولى رفع الإسلام شعار الإنسانية ، وأصَّل لها ، وأكَّد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك المعنى ، فقال : (كُلُّكُمْ لِآدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ) (شعب الإيمان) ، لا تمييز ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وتتجلى إنسانية الإسلام في إعلاء قيمة الإنسان بين سائر المخلوقات ، فكرَّمه وفضَّله ، مهما كان معتقده أو جنسه أو لونه ؛ يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ

كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠].

ومن الجوانب الإنسانية العظيمة التي أسس لها الإسلام : **التعايش السلمي بين الناس جميعا** ، حيث أَمَرَ بِبِرِّ غير المسلمين والإحسان إليهم ، يقول الحق سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الممتحنة: ٨] ، فالبر الذي هو قِمَّةُ الأدب والإحسان مع الوالدين ، مطلوبٌ هو بعينه مع الناس جميعًا ، والقسط والعدل والوفاء هو خُلق الإنسان مع أخيه في الإنسانية سواء بسواء ، ولا أدل على ذلك من موقفه (صلى الله عليه وسلم) حين مرَّت به جنازة فقام لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أليست نفسا؟!) (متفق عليه).

* **ومن الجوانب الإنسانية في الإسلام أيضا** : حثُّه على تفريج الكرب عن المكروبين وإزالة همومهم ومشاركتهم آلامهم وأحزانهم ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، والله في عَونِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَونِ أخِيهِ) (صحيح مسلم).

* **ومن الجوانب الإنسانية في الإسلام كذلك:** قضاء حوائج الناس ، وتقديم الخير والنفع لهم ، بغض النظر عن المعتقد أو العرق أو اللون ، وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧] ، وقد سئل (صلى الله عليه وسلم) : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا - فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ- ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى تَتَهَيَّأَ لَهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ) (المعجم الكبير)، وتصَوّر أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) كيف كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا في الإنسانية والشعور بالآخرين، حين قالت له: (والله ما يُخزيكَ الله أبدًا، إنكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَحمل الْكَلَّ، وتَكِسبُ المعدومَ ، وتَقري الضيْفَ ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ) (صحيح البخاري).

* **ومن الجوانب الإنسانية في الإسلام** : مراعاة مشاعر الناس واحترام خصوصياتهم ، وعدم تتبع عوراتهم ، أو الخوض في أعراضهم ، أحياءً أو أمواتًا ، احترامًا لهم في حياتهم ، وبعد مماتهم احترامًا لذويهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا منَ الظَّنِّ إِنَّ

بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[الحجرات: ١٢] ، فلو أطلقت الألسنة لتلقي التهم جزافًا دون دليل أو بينة لشاع القلق والريبة بين أبناء المجتمع الواحد ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ) (صحيح البخاري).

وقد بلغ من حرص الإسلام على مراعاة مشاعر الناس جميعًا أن حذَّر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أن يتناجى اثنان دون الثالث ؛ لئلا يتسرب الشك إلى قلبه، فتضطرب العلاقات الإنسانية ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً ، فَلَا يَتَنَاجَى اِثْنَانِ دُونَ اَلْآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ) (متفق عليه).

* **ومن الجوانب الإنسانية التي حثنا عليها الإسلام مما يعمق التواصل والتراحم الإنساني** : حق الإنسان على أخيه الإنسان ، إذا مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإذا استجار بك أجرته ، وإذا استغاث بك أغثته ، وإن أصبت خيرًا أهديت له منه ، حتى ولو كان غير مسلم ، فقد كان سيدنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) إذا ذبح الشاة قال : (ابعثوا إلى جارنا اليهودي منها) ؛ لما لذلك من أثر في تأليف القلوب وبناء أسس المودة والتكافل الإنساني .

ومن أهم جوانب الإنسانية : الإنسانية في العطاء ، فقد كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) إذا أرادت أن تتصدق عطرت الدراهم والدنانير ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [الضحى: ١٠] ، ويقول تعالى: {وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} [البقرة: ٢٦٧] ، ويقول

(عز وجل) : {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٣].

* ولم تنته الجوانب الإنسانية في الإسلام عند هذا الحد ، بل تعدت إلى الرحمة بالحيوان ، حيث بلغ من إنسانيته (صلى الله عليه وسلم) تجاه الحيوان أن تحركت مشاعره حين دخل حائِطًا لرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ ، فإذا جمل قد حنَّ إليه (صلى الله عليه وسلم) تذرف عيناه بالدمع مما يفعله به صاحبه ، فمسح ذِفْراه فسكتَ، فقال: (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟) فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ؟ مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (سنن أبي داود) .

ألا ما أحوجنا إلى أن نُجَسّد بأفعالنا قبل أقوالنا إنسانية التعاليم الإسلامية وسموها ، ورقي المشاعر النبوية في معاملة الخلق ، كي نشهد لهذا الدين شهادة عملية ، بعد ما تسللت الأفكار الهدامة إلى عقول بعض أبناء الأمة من خلال أناس زعموا أنهم يتحدثون باسم الإسلام ونبيه ، والإسلام ونبيه منهم براء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

كما أن الإسلام دين الإنسانية في أكمل صورها ، فهو أيضًا دين السلام، والسلام من أعظم مبادئ الإسلام ودعائمه التي قام عليها ، وهدف من أهدافه السامية التي دعا إليها ؛ لينعم الناس جميعًا بالأمن والاستقرار ، ومن ثم يتجه أفراده إلى العمل والبناء ، ويعم التسامح والتعاون والإخاء ، وتزول من حياة الناس أسباب الشقاق والفرقة والعداوة والخصام ، ويصبح كل فرد من أفراد المجتمع داعيًا إلى الخير ، عاملا على إرساء قيمه وأهدافه وتوضيح سبله.

والسلام اسم من أسماء الله تعالى ، قال سبحانه : {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}[الحشر: ٢٣] ، وكان من دعاء النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) عقب كل صلاة : (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) (صحيح مسلم).

ولأن السلام هو شعار الإسلام فقد اختاره الله (عز وجل) وصفًا لليلة القدر التي نزل فيها القرآن الكريم، قال سبحانه: {سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ}[القدر: ٥]، وجعله الله (عز وجل) اسمًا لدار الكرامة والفضل يوم القيامة ، فقال تعالى:{لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ}[الأنعام: ١٢٧]، كما جعله الله تعالى تحية الملائكة لأهل الجنة ، فقال سبحانه:{وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[الرعد: ٢٤]، وقال تعالى:{وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦] ، وكذلك جعله الله

تعالى تحية أهل الجنة، قال تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ..} [يونس: ١٠] ، وقال سبحانه: {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [الفرقان: ٧٥].

كما جعل الله تعالى السلام تحية المسلمين فيما بينهم لتطبيق معانيه في حياتهم وشئون معاشهم ، ولا يقتصر السلام في الإسلام على من نعرفهم فحسب ، بل جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) إفشاء السلام بين الناس جميعًا ؛ ليشمل من نعرفهم ومن لا نعرفهم ، لقوله (صلى الله عليه وسلم) لمن سأله عن الإسلام قائلًا: أيُّ الإسلامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) (متفق عليه) .

فليكن السلام لنا منهج حياة ننعم به ، وينعم به جميع الناس ، كما قال سيدنا عمار بن ياسر (رضي الله عنه) : " ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ" (حلية الأولياء).

على أن السلام المأمور به شرعًا لا يعني مجرد الترديد باللفظ فحسب ، بل يقتضي نشر ثقافة السلام قولًا وفعلًا بين كل المخلوقات ، ولِمَ لا !؟ والمسلم الحق هو من سلم الناس – على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم – من شر لسانه وبطش يده ، قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (سنن الترمذي).

* * *

جوهر الإسلام ورسالته السمحة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...}{البقرة:١٨٥}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فقد أرسل الله (عز وجل) رسوله (صلى الله عليه وسلم) ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليأخذ بنواصيهم من طريق الضلالة إلى سبيل الهداية، فجاء (صلى الله عليه وسلم) برسالةٍ تتميز بالسمو والحكمة والسماحة والمرونة ، والسعة؛ لأنها رسالة تجمع ولا تفرق ، توحد ولا تشتت ، فالإسلام عدل كله ، رحمة كله ، سماحة كله ، تيسير كله ، إنسانية كله ، وأهل العلم قديمًا وحديثًا على أن كل ما يحقق هذه الغايات الكبرى هو من صميم الإسلام ، وما يصطدم بها أو يتصادم معها إنما يتصادم مع الإسلام وغاياته ومقاصده .

ومما لا شك فيه أن فهم جوهر الإسلام ، ومعرفة أسرار رسالته السمحة ، والوقوف على مقاصده وغاياته السامية ، وتطبيق ذلك كله في ضوء مستجدات العصر ومتطلباته ، يعد ضرورة ملحة لمواجهة التحديات المعاصرة ، وكبح جماح الجماعات الإرهابية والمتطرفة ، ومحاصرة الفكر المتطرف ، وكسر دوائر التحجر والجمود والانغلاق وسوء الفهم وضيق

الأفق ، والخروج من هذا الضيق إلى عالم أرحب وأوسع وأيسر ، وأكثر نضجًا ووعيًا ، وبصرًا وبصيرةً ، وتحقيقًا لمصالح البلاد والعباد ، ونشر القيم الإنسانية الراقية التي تحقق أمن وأمان وسلام واستقرار وسعادة الإنسانية جمعاء.

إن من يتحدث بلسان الحق ومنطق الإنصاف يقر ويشهد أن الإسلام دين مكارم الأخلاق ، ورسالته أتت لإتمام هذه المكارم ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (الأدب المفرد) ، فحيث يكون الصدق ، والوفاء ، والأمانة، والبر ، وصلة الرحم ، والجود ، والكرم ، والنجدة ، والشهامة ، والمروءة، وكف الأذى عن الناس، وإماطة الأذى عن الطريق ، وإغاثة الملهوف ، ونجدة المستغيث ، وتفريج كروب المكروبين ، يكون صحيح الإسلام ومقصده .

وحيث وجد الكذب ، والغدر ، والخيانة ، وخلف الوعد ، وقطيعة الأرحام ، والفجور في الخصومة، والأثرة ، والأنانية ، وضيق الصدر، فانفض يدك ممن يتصف بهذه الصفات ومن تدينهم الشكلي ، واعلم أنهم عبء ثقيل على الدين الذين يحسبون أنفسهم عليه؛ لأنهم بهذه الأخلاق وتلك الصفات منفرون غير مبشرين، صادون عن دين الحق لا دعاة إليه ، وإن زعموا عكس ذلك وأقسموا واجتهدوا ، فلا خير فيهم ولا وزن لقسمهم ، وإن أعجبك قولهم وأدهشتك بلاغتهم فتذكر قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ

بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]، وقوله سبحانه: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:١-٤].

لقد رسّخ النبي (صلى الله عليه وسلم) تعاليم الإسلام السمحة ، وأخلاقه الكريمة وقيمه النبيلة في قلوب أصحابه حتى أصبحت منهج حياة يعيشون ويتعايشون به مع الناس جميعًا ، فهذا جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) يقف أمام النجاشي ملك الحبشة موضّحًا ومبينًا شيئًا من هذه القيم ، وتلكم الأخلاق بأسلوب راقٍ ، وكلمات واثقة قائلًا: (أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، وَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفُحْشِ ، وَقَوْلِ

الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ ...) (مسند أحمد).

وقد حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين إلى التسامح وحسن الصلة مع الناس جميعًا ، يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} ، فهذه دعوة لحسن التعامل مع الناس جميعًا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومعتقداتهم ، ويقول سبحانه: {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨] .

وليس هناك أدل على هذا التسامح من دعوة الإسلام إلى الإيمان بجميع الأنبياء (عليهم السلام) دون تفريق بين نبي ونبي ، فكلهم جاءوا بدعوة واحدة، ورسالة واحدة، وهدف واحد ، قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة:٢٨٥]، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلَّاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ) (متفق عليه) .

إن البشرية على مدى تاريخها لم تعرف دينًا ولا نظامًا اشتملت مبادئه على السماحة واليسر كالإسلام ؛ فالإسلام سمح كله ، سمح في عباداته ، سمح في معاملاته، سمح في أخلاقه ؛ لأن تعاليمه جاءت بما يتناسب مع طبيعة الإنسان وفطرته؛ لذا يقول الحق سبحانه: {يرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ

عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

ففي العبادات تتجلى سماحة الإسلام ويسره في أنها مَشروطةٌ بالقُدْرة على أدائها، مع مُراعاةِ الحالاتِ المُختلفةِ عند عدم القدرة أو العَجْزِ ، فصلاة المسافر غير صلاة المقيم في عدد ركعاتها ؛ وصلاة الحرب والخوف غير صلاة الأمن والاستقرار في كيفيتها، وهذا مِن تَجليات السَّماحةِ التي لا يُجارَى فيها الإسلامُ ولا يُبارَى، ولعلَّ مِن أشهر القواعدِ الفقهيَّة التي بُنيتْ عليها الأحكامُ التَّشريعيَّةُ (المشقة تجلب التيسير) ، فحيثما وجدت المشقة في الفعل جاء التيسير من الشارع الحكيم، وهذا نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يوجه عمران بن حصين (رضي الله عنه) في مرضه قائلًا له: (صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ) (صحيح البخاري) .

وفي مجال المعاملات جعل الإسلام السماحة والتيسير مبدأً عامًّا في صور المُعاملاتِ الماليّةِ المُختلفة ، ففي البيع والشراء ، والاقتضاء حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على السماحة ، فقَالَ : (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (صحيح البخاري) ، كما حثَّ الإسلام على السماحة في القرض وإنظار المعسر ، فقال تعالى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢٨٠]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ) (صحيح مسلم).

ومن أعظم صور السماحة والتعايش الإنساني في حياته (صلى الله عليه وسلم) أنه (صلى الله عليه وسلم) مات ودرعه مرهونة عند يهودي في

المدينة ، فعَنْ عَائِشَةَ(رضي الله عنها): (أَنّ رَسُولَ اللّهِ (صلى الله عليه وسلم) اشْتَرَىَ مِنْ يَهُودِيّ طَعَامًا إِلِىَ أَجلٍ ، وَرَهَنَهُ درْعًا لَهُ مِنْ حَدِيدٍ) (صحيح مسلم). وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (توفي النبي (صلى الله عليه وسلم) ودرعه مرهونة بعشرين صاعًا من طعام أخذه لأهله) (سنن الترمذي) ، وما فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك من فقر أو حاجة ، وإنما فعله (صلى الله عليه وسلم) ليبين لنا جواز التعامل مع غير المسلمين ، وليضرب لنا مثلًا عمليًّا في التسامح ، وحسن المعاملة بين المسلمين وغير المسلمين.

ومن مظاهر سماحة الإسلام تشريعه للتكافل الاجتماعي والأمر به من باب التعاون والتراحم ، فالمجتمع الإسلامي لا يَعْرِف أنانية ، ولا سلبية ، فديننا دين العطاء ، والبذل ، والتضحية ، والفداء والإيثار لا الأثرة ، ولا الشح ، ولا البخل ، فالمؤمن سمحٌ جوادٌ كريمُ، قال الله تعالى واصفًا الأنصار (رضي الله عنهم): {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:٩].

ويوم أن جاءت امْرَأَةٌ إلى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، نَسَجَتْهَا بِيديها ليلبسها رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم)، وأخذها النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، فخرج إليهم وإنها إزاره ، فَقَالَ له رجل من القوم : اكْسُنِيهَا ، مَا أَحْسَنَهَا ، فرجع النبي (صلى الله عليه

وسلم) فطواها ، ثم أرسل بها إليه، فقَالَ له القَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، ثُمَّ سَأَلْتَهُ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لاَ يَرُدُّ سائلًا ، فقَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ ، مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَها ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي ، فَكَانَتْ كَفَنَهُ) (صحيح البخاري) .

إن الإسلام كما أمر بالتسامح وحسن المعاملة ، نهى عن التشدد والغلو ، وحذر من خطورته وآثاره ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) (سنن ابن ماجه)، وعنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ، قَالَهَا ثَلَاثًا) (صحيح مسلم)، والمتنطعون هم: الغالون ،المجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم.

فحري بكل مسلم صادق في محبته لدينه ووطنه أن يتخذ من التسامح والاعتدال والوسطية منهجًا يطبقه في كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته وأحواله ، مقتديًا في ذلك برسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) متجنبًا كل مظاهر التطرف الفكري والتشدد والغلو التي نهى عنها ديننا الحنيف ، وأن يكون صورة مشرفة لدينه بنشر سماحة الإسلام ، وترسيخ أسس المواطنة الكاملة والعيش الإنساني المشترك ، بعيدًا عن كل ألوان التشدد والغلو .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إن المقاصد العليا للشريعة الإسلامية تدور في جملتها حول تحقيق مصالح العباد، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله (عز وجل) ، فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة ، أو لهما معًا ، يقول العز بن عبد السلام (رحمه الله): لا يخفى على عاقل أن تحصيل المصالح المحضة، ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن ، واتفق الحكماء أيضا ، وكذلك الشرائع كلها على تحريم الدماء، والأعراض، والأموال ، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال .

إن الإسلام دين العمل والإنتاج والإتقان ونفع البشرية ، فحيث يكون العمل والإنتاج والإتقان ونفع البشرية يكون التطبيق العملي لمنهج الإسلام، وحيث تكون البطالة والكسل والتخلف عن ركب الحضارة فكبر على من يتصف بذلك أربعًا ، وإن تسمى بأسماء المسلمين وحسب نفسه عليهم ، فهو عبء على دين الله (عز وجل) وعالة على خلقه ، وهذا توجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه وأمته : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (الأدب المفرد).

* * *

الإيمان وأثره في تحقيق السكينة للفرد والمجتمع

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز : {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

وبعـد:

فإنَّ من أجل نعم الله تعالى على عباده نعمة الإيمان بالله (عز وجل) ، فهو الطريق الموصل إلى الله تعالى ، وهو ميزان العلاقة بين العبد وربه ، فكلما زاد الإيمان في قلب العبد زادت علاقته بالله (عز وجل) ، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال:٢] ، والإيمان: هو التصديق الجازم الذي لا يعتريه شك ولا شبهة بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ، النافع الضار ، المتصرف في كونه كيف يشاء ، وهو في الحقيقة نور يضيئ جوانب النفس ، وسعادة تغمر القلب ، ويقظة تحيي الضمير .

وقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) حقيقة الإيمان الّذي ينبغي أن يتحقق في قلب المؤمن ، وذلك حينما سأله جبريل (عليه السلام) عن

الإيمان ، فقال: (...أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ: صَدَقْتَ) (صحيح مسلم)، فليس الإيمان مجرد كلمة تقال باللسان ، وإنما هو اعتقادٌ بالقلب ، وإقرارٌ باللسانِ ، وعملٌ بالجوارحِ والأركان ، فالإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ، لذلك جاء الإيمان مُقترنًا بالعمل الصالح في أكثر آيات القرآن الكريم ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، حيث يقول الحق (سبحانه) : {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البقرة: ٢٥]، ويقول سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة ٨٢]، ويقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٧٧] ، ويقول (عز وجل) : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠] ، ويقول سبحانه : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف: ١٠٧ ، ١٠٨] ، إلى غير ذلك من الآيات التي اقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح ، وهذا دليل على أن الإيمان بدون عمل صالح لا قيمة له .

وللإيمان بالله طعم وحلاوة لا يستشعرها إلا أهل الرضا الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ

بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) رَسُولًا) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ : أنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سَوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ الله مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ) (متفق عليه).

على أن للإيمان شعبًا متعددة ينبغي على كل مؤمن أن يحرص على الالتزام بها ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (متفق عليه)، ولما سأل رجل الحسن البصري (رضي الله عنه) : أمؤمن أنت؟ فقال له: (الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال ٢:٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا ؟) (شعب الإيمان).

والإيمان بالله (عز وجل) شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إذا قويت أصولها وثبتت جذورها ، آتت أكلها وأثمرت الخير العاجل والآجل لصاحبها في الدنيا والآخرة ، فهو نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد ، ويورثه الطمأنينة والحكمة ، ويجعله يرى بنور الله (عز وجل) ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ

مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَرَجَ يَوْمًا فَاسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ : حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ، فَقَالَ لَهُ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟) " قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا. قَالَ: (انْظُرْ مَا تَقُولُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟) قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ عَرْشَ رَبِّي بَارِزًا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا . قَالَ : (يَا حَارِثَةُ ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ) ، وفي رواية : (أَصَبْتَ فَالْزَمْ ، مُؤْمِنٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ) (المعجم الكبير).

وإذا كان الإيمان الصادق يورث صاحبه الأمن والأمان فإنه بذلك يسهم في تحقيق الاستقرار للمجتمع ، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] ، وقال (عز وجل) : {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[الرعد: ٢٨] ، ولله در القائل :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ** ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ومن رضي الحياة بغير دين ** فقد جعل الفناء لها قرينا

فالإسلام قد أرسى قواعد السلم والأمن والاستقرار ، وذلك لا يتحقق إلا بالإيمان الصادق ، فليس من أخلاق المؤمنين السلب والنهب ، وترويع الآمنين والاعتداء عليهم ، حتى ولو كانوا غير مسلمين ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (صحيح البخاري) ، وقد سئل (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن

المؤمن، فقال: (الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (مسند أحمد).

وبالإيمان بالله (عز وجل) يتحقق الود بين الناس ، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}، وبه يكون العبد في معية الله تعالى وعنايته ورعايته فيتولى الله (عز وجل) الدفاع عنه ، فيدفع عنه جميع المكاره ، وينجّيه من الشدائد ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج ٣٨].

والإيمانُ بالله (عز وجل) يهدِي صاحبه إلى كل خيرٍ ، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[يونس: ٩] ، وبه يحيا الإنسان حياة طيبة ، قانعًا بعطاء الله تعالى له ، فلا يفرح بما أوتي من نعمة ، ولا يحزن لفوات رزق ؛ لأن قلبه اطمأن بالإيمان والرضا ، قال تعالى : {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧] ، وحين يتمكن الإيمان من النفس البشرية فإنها حينئذ تمتلئ بالسكينة واليقين والرضا ، فتسعد في الدنيا والآخرة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

إخوة الإسلام :

إن الإيمان الحقيقي يحقق الاستقرارَ النفسِي ، والصبر والرضا بقضاء الله (عز وجل)، قال تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٥: ١٥٧] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) (صحيح مسلم).

وبالإيمان الحقيقي يثبت الله (عز وجل) قلب المؤمن في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة ، يقول سبحانه: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧].

والمتأمل في قصة السيدة هاجر زوج خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يجد أن الحق سبحانه وتعالى قد ثبَّت قلبها بالإيمان عندما تركها زوجُها وابنَها الرضيع إسماعيل (عليه السلام) في صحراء مكة حيث لا زرع ولا ماء ، وهَمَّ بالانصراف ، فَقَالَتْ له هَاجَرُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهذَا الوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنِيسٌ وَلاَ شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرارًا ، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، قَالَتْ لَهُ : آللهُ أَمَرَكَ بِهذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا) (صحيح البخاري)، فيالها من كلمة عظيمة تعبر عن صدق الإيمان والثقة

بالله (عز وجل) والاعتماد عليه ، وهكذا يجب على المؤمن أن يكون في كل أحواله متحليًا بالثقة الكاملة واليقين التام في الله (عز وجل) .

ومن آثار الإيمان الحقيقي أنه يورث صاحبه طمأنينة ووقارًا ، فتسكن به جوارحه ، ويجعله صادقًا في أقواله وأفعاله ، ثابتًا في جميع ظروفه وأحواله ، بعيدًا عن كل صور الانحراف والتشدد والتعصب ، محبًّا للخير لنفسه ولجيرانه ، ساعيًا لتحقيق الخير والصلاح لمجتمعه ووطنه.

أما من انحرف بأخلاقه وتصرفاته عن الوجهة الشرعية الصحيحة فهو مدع للإيمان، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (متفق عليه).

لذا صرَّح النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفي كمال الإيمان عمن يؤذي جاره ، أو من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، قِيلَ : وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) (متفق عليه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (المعجم الكبير)، فالإيمان الحقيقي هو الذي ينقي صدر صاحبه من الحقد والحسد ، والغل، والغدر والخيانة ، والفساد والإفساد ، وهو الذي يهذب أخلاق صاحبه ، ويظهر أثره على سلوكه وسائر تصرفاته وحركته في الكون والحياة ، وتعامله مع خلق الله أجمعين ، رحمة بالإنسان والحيوان والجماد ابتغاء مرضاة الله وحده ، قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ

مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: ٩].

*   *   *

القرآن الكريم وأثره في تقوية الجوانب الإيمانية وترسيخ القيم الإنسانية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ،

وبعد:

فلقد أرسل الله (عزّ وجلّ) رسوله محمدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالهدى ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ ويأخذ بيد البشرية من طريق الضلالة إلى الهدى، فأيده بالآيات، والمعجزات الباهرات ، غير أن القرآن الكريم يبقى هو المعجزة الخالدة التي أيد الله بها نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وفي هذا يقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ) (متفق عليه).

فالقرآن الكريم هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا يناله التحريف، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه

هُدى إلى صراط مستقيم، وما ذاك إلا لما تميز به القرآن الكريم من تأثير على النفس البشرية، ففي خطابه حياةٌ للقلوب، وتطهيرٌ للأرواح، وتهذيبٌ للأخلاق ، وتقويمٌ للسلوك ؛ ولم لا؟ وهو كلام رب العالمين ، الذي يهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة، فلا تدري أجاءك الحسن من جهة لفظه أم من جهة معناه ، إذ لا تكاد الألفاظ تصل إلى الآذان حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب؛ وهو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن: ١، ٢] .

ولقد جاء القرآن الكريم ليصلح نفوسًا حادت عن الفطرة الإنسانية، ويهذب أخلاقًا وسلوكيات ابتعدت عن الجوانب الإيمانية، وقد صور جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) حال تلك النفوس قبل أن يهذبها القرآن فقال: "كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ) (مسند أحمد)، فكان خطاب القرآن الكريم لهم سببًا في إيقاظ ضمائرهم، وإحياء قلوبهم ، وسعادتهم في

الدنيا والآخرة، قال تعالى : {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢]، وقوله سبحانه: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا..} [الشورى: ٥٢].

كما أن المتتبع لآيات القرآن الكريم يرى كيف أرسى الخطاب القرآني البناء الأخلاقي في حياة الأفراد والمجتمعات، من خلال تقوية الجوانب الإيمانية، وترسيخ القيم الإنسانية، فقد اهتمّ القرآن الكريم ببناء شخصية الإنسان، وتقوية الجوانب الإيمانية التي تقوم على الصدق، والأمانة والرحمة والعدل واحترام الآخر، والإيمان بسنن الله الكونية في الاختلاف والتنوع، وإهلاك الظالمين، وتمكين الصالحين، إلى غير ذلك من القيم الإيمانية والإنسانية التي أمر بها القرآن الكريم، وعلى رأس هذه القيم التي حرص القرآن الكريم على ترسيخها في نفوس أتباعه؛ قيمة الرحمة، فالمسلم حينما يتلو كتاب الله يبدأ تلاوته بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فيستشعر أن رحمة الله صفة من صفات الذات العلية، بها أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، وبها هداية الخلق، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رَزَقهم وعافاهم، وهي أخص صفات النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، التي وصفه القرآن الكريم بها في العديد من آياته، فقد كان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رحمة تمشي على الأرض، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

وقد بين الحق تبارك وتعالى أنَّ الرحمة تؤدي إلى لين القلب، وتؤلف بين النفوس والأرواح، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩] ، وبيّن القرآن الكريم أيضًا أن المؤمن ينبغي أن يطلب رحمة الله دائمًا، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ٢١٨]، وبيّن أن أبناء المجتمع لا بد أن يتعاملوا فيما بينهم بالرحمة، فقال تعالى: {ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد: ١٧].

ومن الجوانب الإيمانية التي رسخها القرآن الكريم في النفوس البشرية، قيمة الصدق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] ، والصدق يكون مع الله بإخلاص الإيمان به، والطاعة والعبادة لله، ويكون مع النفس بإلزامها طريق الفلاح والنجاح ، ويكون مع الآخرين بترك غشهم، والتدليس عليهم، وخيانتهم...إلخ ، وبذلك تستقيم الحياة ؛ ويتماسك المجتمع، وتقوى الروابط بين الناس، وتنصلح العلاقات ، ولقد بيّن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن الكذب وهو نقيض الصدق يؤدي إلى الخروج من طاعة الله ، وأنه ينافي الإيمان ، وأن مصير المتخلق به النار والعياذ بالله ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ،

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (متفق عليه)؛ لذا كان الكذب أبغض شيء لرسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (مَا كَانَ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنَ الْكَذِبِ وَمَا جَرَّبَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ أَحَدٍ – وَإِنْ قَلَّ- فَيُخْرِجَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى يُجَدِّدَ لَهُ تَوْبَةً) (الحاكم في المستدرك، والبيهقي في الكبرى)، ولله درّ القائل:

الصِّدْقُ أَوْلَى مَا بِهِ ... دَانَ امْرُؤٌ فَاجْعَلْهُ دِينا

وَدَعِ النِّفَاقَ فَمَا رَأَيْ ... تُ مُنَافِقًا إِلَّا مَهِينا

إنَّ المتدبر لكتاب الله تعالى المتعمق في ثنايا النصوص، السابح في فضاء الآيات يستخرج الكثير من الجوانب الإيمانية، والقيم الإنسانية التي يصلُح بها حال البشرية ويستقيم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لقد دعا القرآن الكريم إلى ترسيخ القيم الإنسانية التي لا يختلف عليها البشر مهما اختلفت عقائدهم وتباينت أفهامهم، وغاية القرآن من ترسيخ هذه القيم الإنسانية والدعوة إليها هي سعادة الفرد والجماعة من

خلال تعاليمه وتشريعاته، ومن هذه القيم الإنسانية التعايش السلمي بين كافة أفراد المجتمع والوطن الواحد بغض النظر عن معتقداتهم، واختلاف ألوانهم، وأجناسهم، وثقافتهم، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩] ، ويقول سبحانه : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[يونس: ٩٩] ، فالعالم بأسره في ظل التقدم التكنولوجي، والمعرفي الهائل أصبح قرية صغيرة، لا غنى لأهلها عن بعضهم، وبدون هذا العيش المشترك لا تستقيم عمارة الأرض، ولا يتحقق التقدم والرخاء، وبدونه لا يأمن الناس على أرواحهم، ولا على أموالهم، ولا أعراضهم، وبدونه لا يستطيعون حتى التعبد في محاريبهم.

وهذا ما رسخه القرآن الكريم في آياته، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨] ، وقال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣].

وتتجلى صورة التعايش السلمي المشترك مع الآخر في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ

غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} [المائدة: ٥].

ومن القيم الإنسانية التي رسخها القرآن الكريم نبذ العنصرية، فالبشرية مردها إلى أصلٍ واحد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١] ، ولا فرق بين عربي وعجمي، وأحمر وأسود إلا بالتقوى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

ومن القيم الإنسانية التي رسخها القرآن الكريم، العدل ، والإنصاف للآخرين ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو غني وفقير ، أو قريب وبعيد ، أو حاكم ومحكوم ، أو لونٍ ولونٍ ، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٣٥] ، وقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨]، أي: لا يحملنّكم كراهية قوم وبغضهم على عدم التعامل بالعدل معهم.

لقد دعا القرآن الكريم البشرية إلى قيم إنسانية عالمية ليست نابعة عن هوى، أو تعصب، أو أنانية، بل هي أنوار ربانية تصل بالبشرية- إن هي تمسكت بها وجسدتها واقعًا ملموسًا- إلى أعلى درجات الإنسانية.

* * *

فهم مقاصد السنة النبوية ضرورة عصرية لمواجهة الجمود الفكري*

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم : {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليَه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ،

وبعد :

فإنه لا ينكر حجية السنة النبوية المطهرة وفضلها ومكانتها إلا جاحد أو معاند ، فقد أجمعت الأمة على أنها المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله (عز وجل) ، ومن ثمة كانت العناية الفائقة بها حفظًا ورواية ، وتدوينًا ، وتخريجًا ، وتنقية ، وفهمًا ، واستنباطًا .

على أن جميع النصوص التي وردت في القرآن الكريم تتحدث عن طاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتحذير من مخالفة أمره ، وتؤكد على حجية السنة وتنطق بها ، يقول الحق سبحانه وتعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠] ، ويقول سبحانه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ

* ملاحظة : هذه الخطبة مأخوذة من كتاب الفهم المقاصدي للسنة النبوية لمعالي وزير الأوقاف أ.د/ محمد مختار جمعة.

عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧] ، ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: ١٣٢].

بل إنَّ الله (عز وجل) جعل اتباع سنته (صلى الله عليه وسلم) من لوازم الإيمان وأماراته، وعلامة من علامات صدق العبد في محبته لله (سبحانه) ، قال تعالى : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١].

وقد أمر الله (عز وجل) بتعظيم أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) وحذر من مخالفته ، فقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣]، وقال تعالى : {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

كما بيّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن طاعته وامتثال أمره من طاعة الله (عز وجل) ، وأن معصيته من معصية الله ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ) (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (...فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) (متفق عليه)، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (صحيح البخاري).

على أنه ينبغي أن نعلم أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع ، شارحة، ومفصلة، ومبينة، ومتممة، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: ٤٤] ، وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} {فَضْلُ}[النساء: ١١٣]، ويقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]، قال الحسن البصري ، والشافعي وغيرهما : الحكمة هي السنة.

إن الراسخين في العلم من أهل الفضل والحق يدركون مكانة السنة النبوية المشرفة ، وأن الفهم الصحيح للدين لا يتم إلا بفهم مقاصد السنة النبوية المطهرة ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ) (مسند أحمد) ، وقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلاَلًا اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ) (سنن الترمذي) .

غير أن هناك من يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزون الظاهر الحرفي منها إلى فهم مقاصد السنة النبوية المطهرة ومراميها ، فيقعون في العنت والمشقة على أنفسهم ، وعلى من يحاولون حملهم على هذا الفهم المتحجر ، دون أن يقفوا على فقه مقاصد السنة المشرفة ، بما تحمله من وجوه يسر وعظمة ديننا الحنيف ، والذي لو أحسنا فهمه وعرضه على الناس

لغيّرنا تلك الصورة السلبية التي سببتها أو سوقتها الأفهام والتفسيرات الخاطئة للجماعات الإرهابية والمتطرفة والمتشددة ، ورؤى أصحاب الأفهام السقيمة الجامدة المتحجرة على حد سواء.

ورحم الله الحسن البصري حين قال: (إنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (يَأْتِي فِي آخِرِ الزّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيّةِ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (صحيح البخاري).

وتعالوا بنا لنقف مع هذه الحادثة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) واختلاف الصحابة في فهم مقصد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكيف كان ردُّ فعله (صلى الله عليه وسلم)، ففي غزوة بني قريظة كان يهود بني قريظة قد نقضوا عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة الأحزاب ، فلما ردَّ الله (عز وجل) الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : (لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ) فانطلقوا مسرعين نحوها، فأدركهم الوقت، وأوشك على الانقضاء، ولم يصلوا إلى بغيتهم، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نصل بني قريظة، وقال آخرون : لم يُردْ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منا ذلك، إنما أراد الإسراع بالمسير ، فصَلُّوا قبل أن يَصِلوا إلى بني قريظة ، فلم ينكر النبي (صلى الله عليه وسلم) على هؤلاء ولا على أولئك (متفق عليه).

ونأخذ من ذلك أن في الأمر سعة ، وفيه متسع للرأي والرأي الآخر ، طالما أن النص يحتمل ذلك ، وطالما أن المجتهد أهلٌ للاجتهاد والنظر ، وله وجهة علمية يبنى ويحمل عليها ، أما أن يتحجر بعض من لا علم لهم عند ظواهر النصوص دون فهم لمقاصد الأمور ، فهذا هو عين التعصب والجمود .

على أننا نؤكد أن الجهل بفقه الخلاف يؤدي إلى التعصب للرأي والانتصار له بل وربما المعاداة من أجله ، ولن نستطيع القضاء على كل هذه الأفكار السلبية إلا بالفهم الصحيح لمقاصد الشارع الحكيم من كتاب ربنا وسنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وتربية النشء على تعلم أدب الخلاف ، واحترام الرأي الآخر ، وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول : (رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب) (الأم للشافعي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إذا أردنا أن نقف مع بعض الأمثلة اليسيرة للفهم المقاصدي ، فلنأخذ مثالا لذلك: قوله (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ

فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ) (صحيح البخاري)، والمراد بـ (دَاخِلَة الْإِزَار) طرفه، فيُسْتَحَبّ أَنْ يَنْفُض الإنسان فراشه قبل أَنْ يَدْخُل فِيهِ بطرف ثوبه لِئَلَّا يَحْصُل فِي يَده مَكْرُوه، فلو وقفنا عند ظاهر النص فماذا يصنع من يلبس ثوبًا يصعب الأخذ بطرفه وإماطة الأذى عن مكان النوم به كأن يرتدي لباسًا عصريًّا لا يمكنه من ذلك.

ولو أخذنا بالمقصد الأسمى وهو تنظيف مكان النوم والتأكد من خلوه مما يمكن أن يسبب للإنسان أي أذى من حشرة أو نحوها ، لتأكدنا أن الإنسان يمكن أن يفعل ذلك بأي وسيلة تحقق المقصد وتفي بالغرض ، فالعبرة ليست بإمساك طرف الثوب ، وإنما بما يتحقق به نظافة المكان والتأكد من خلوه مما يمكن أن يسبب الأذى ، بل إن ذلك قد يتحقق بمنفضة أو نحوها أكثر مما يتحقق بطرف الثوب ، لكن النبي (صلى الله عليه وسلم) خاطب قومه بما هو من عاداتهم وبما هو متيسر في أيامهم حتى لا يشق عليهم في ضوء حياتهم البسيطة .

فمن شابهت حياتُه حياتهم فلا حرج عليه إن أخذ بظاهر النص ، غير أن محاولة حمل الناس جميعًا مع كل ألوان تطور الحياة العصرية على الأخذ بظاهر النص ظلم كبير في فهم مقصده .

ومن أمثلة الفهم المقاصدي كذلك: ما يتصل باستخدام السواك الذي تحدث عنه الفقهاء ، فقالوا في حكمته: مطهرة للفم، ومرضاة للرب، وإصابة للسنة، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (لَوْلَا أَنْ أَشُقّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ

عَلَى النّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ) (صحيح البخاري)، وفي رواية: (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ معَ كُلِّ وُضُوءٍ) (مسند أحمد)، والقصد من السواك: طهارة الفم، والحفاظ على رائحته الطيبة، وإزالة أي آثار لأي رائحة كريهة مع حماية الأسنان وتقوية اللثة ، وهذا المقصد كما يتحقق بعود السواك المأخوذ من شجر الأراك يتحقق بكل ما يحقق هذه الغاية ، فلا حرج مِن فعل ذلك بعود الأراك أو غيره كالمعجون وفرشاة الأسنان .

أما أن نتمسك بظاهر النص ونحصر الأمر حصرًا ونقصره قصرًا على عود السواك، ونجعل من هذا العود علامة للتقى والصلاح بوضع عود أو عودين أو ثلاثة منه في الجيب الأصغر الأعلى للثوب مع تعرضه – غالبا – للغبار والأتربة والتأثيرات الجوية ونظن أننا بذلك فقط دون سواه إنما نصيب عين السنة ، ومن يقوم بغير ذلك غير مستنٍّ بها ، فهذا عين الجمود والتحجر لمن يجمد عند ظاهر النص دون فهم أبعاده ومقاصده ، لذا فنحن في حاجة إلى قراءة مقاصدية عصرية للسنة النبوية ، تتواكب مع روح العصر ومستجداته ، وتقرب السنة النبوية العظيمة إلى الناس بدلًا من الأفهام السقيمة التي تنفر الناس من السنة ولا تقربهم منها .

إن الشريعة الإسلامية شريعة سمحاء لا تعرف الجمود ولا التشدد ، إنما هي شريعة التيسير والمرونة والسعة وكل ما فيه صالح البلاد والعباد .

* * *

تقديم المصلحة العامة على الخاصة
وأثره في استقرار المجتمعات وبناء الدول

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد ، والسُّمُوّ بالنفس البشرية ، والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات، لذا فإن ديننا الإسلامي الحنيف دعا إلى الإيثار وسخاء النفس، وهو خلق كريم ، وسلوك قويم، وقيمة إنسانية راقية ، وصفة يتميَّزُ بها الصفوة من عباد الله ، وقد أثنى القرآن الكريم على الأنصار ، ووصفهم بهذا الخلق النبيل ، فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

وعندما نزل ضيفٌ بالنَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَبَعَثَ إِلَى نِسَائه يسألهنَّ عن طعام ، فَقُلْنَ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (مَنْ يَضُمُّ هَذَا، أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، وَانْطَلَقَ

بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ ! فَقَالَ : هَيِّئِي طَعَامَكِ ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ السِّرَاجَ فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلانِ ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَا غَدَا إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فِعَالِكُمَا ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر ٩] (متفق عليه).

إن خلق الإيثار من أسمى صور الرُّقِيِّ الأخلاقِيِّ، فمِنْ خلالِهِ يستطيعُ المؤمنُ أَنْ ينتصر على نفسه ، ويتغلَّب عَلَى هواهُ طاعةً للهِ (عز وجل)، وهو مرتبة عالية مِن مراتب البذل والسخاء ، وهو خلق يحمل صاحبه على الخِلال الحميدة كالرَّحمة ، وحبِّ الخير للغير ، والسَّعي لنفع النَّاس بعيدًا عن الأنانية وحب الذات ، وغير ذلك من الأخلاق السَّيِّئة والخِلال الذَّميمة، فديننا الحنيف قائم على الإيثار وحب العطاء، لا على الأثرة والشح والأنانية.

وإذا كان الإيثار على إطلاقه خُلقًا كريمًا فإن إيثار الأوطان على المصلحة الشخصية لهو من أنبل أنواع الإيثار وأسخاها نفسًا ، فهو إيثار للعام على الخاص ، يقول شوقي:

بِلادٌ ماتَ فِتيَتُها لِتَحيا	وَزالوا دونَ قَومِهِمُ لِيَبقوا

ولا خلاف بين العقلاء وأولي الألباب في أنّ ما يحقق النفع العام للبلاد والعباد مقدمٌ على ما يحقق النفع الخاص لشخص بعينه أو مجموعة من

الأشخاص؛ ذلك أن المصلحة العامة تشمل كل ما يحقق إقامة الحياة من أمور مادية، ومعنوية، تجلب الخير والنفع للناس، وتدفع عنهم الشر والمفاسد ، وتحقق حماية الوطن واستقراره وسلامة أراضيه، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات، ولقد جاء الشرع الحنيف بما يتوافق مع العقل ويتناسب معه، حيث رغب في تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهذا واضح جلي في سيرة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لقد أكد القرآن الكريم على أن الحفاظ على المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة هو منهج الرسل والأنبياء جميعًا ، فما أرسل الله (عز وجل) نبيًّا ولا رسولًا إلا لإسعاد قومه وتحقيق الخير لهم دون مقابل مادي أو منفعة دنيوية ، قال تعالى على لسان نبيه نوح (عليه السلام) : {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [هود: ٢٩] ، وقال سبحانه على لسان نبيه هود (عليه السلام) : {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [هود: ٥١] ، ويقول سبحانه على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام) : {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود:٨٧– ٨٨].

ومن أروع الأمثلة في ذلك ما جاء عن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم): "يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟" فَقَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ "، قَالَ: (فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ) ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (متفق عليه) ، وقد كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما أراد وأخرج الله (عز وجل) من أصلابهم رجالًا وَحَّدُوا الله ، وحملوا راية السلام والإسلام للعالم أجمع.

وهذا هو عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في عام الرمادة وقد اشتد بالمسلمين الفقر والجوع فحضرت تجارته من الشام فإذا هي ألف بعير محملة بُرًّا، وزيتًا، وزبيبًا فجاءه تجار المدينة، فقال لهم: (ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد ، بعنا هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه، قال: حبًّا وكرامة ، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: نزيدك الدرهم درهمين، فقال لهم: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة ، قال: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا خمسة، قال: أُعطيت زيادة على هذا، فقالوا له: يا أبا

عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذي أعطاك؟ فقال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا ، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين) (الشريعة للآجري) .

وحينما أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصحابة بشراء بئر رومة وَكَانَت تحت يد رجل يهودي، وكان يغالي في ثمن مائها ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلاَءِ الْمُسْلِمِينَ) (صحيح البخاري) فأتى عثمان (رضي الله عنه) اليهودي وساومه عليها ، فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم ، فجعله للمسلمين ، وكان لسيدنا عثمان يوما ولليهودي يوم ، فكان إذا جاء يَوْم عثمان استقى المسلمون مَا يكفيهم يومين. فلما رأى ذَلِكَ اليهودي قَالَ: أفسدت عليَّ بئري، فاشترِ النصف الآخر، فاشتراه عثمان (رضي الله عنه) بثمانية آلاف درهم ، وكانت هذه استجابة من سيدنا عثمان (رضي الله عنه) لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاشتراها ؛حرصًا على المصلحة العامة للمسلمين .

وهذا هو أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) يتصدق بأحب ماله إلى قلبه ويجعله صدقة جارية ، فقد كَانَ (رضي الله عنه) أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران:٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ) فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) (متفق عليه).

هكذا رَبَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، أصحابه على هذه القيم والمبادئ التي من خلالها يرتقي الإنسان بنفسه ، ويكون عنصرًا مفيدًا في مجتمعه ، يعرف ما له وما عليه ، فيتحقق الأمن والأمان والكفاية والاستقرار في المجتمع .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن المتأمل في كثير من التشريعات الإسلامية يرى أنها تحث وترغب وتعمق مبدأ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومن صور ذلك:

* **في مجال التجارة:** نهى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن الاحتكار والاستغلال، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ) (صحيح

مسلم)، فالمحتكر وإن كان ظنه أن في ذلك تحقيق مصلحة شخصية له بنمو ربحه وتكثير ماله، إلا أن ذلك لما كان فيه ضرر على المجتمع وتضييق على الناس، كان في نظر الشارع يستحق العقوبة؛ مراعاة لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية .

* **في مجال التكافل المجتمعي**: فقد نهى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن ادخار الغذاء وتخزينه إذا كان المجتمع في حاجة إليه ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلاَ يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ) فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: (كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا) (متفق عليه) ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَال رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ)، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ) (صحيح مسلم) .

* **في مجال المعاهدات الخارجية**: حيث ردَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أبا بصير (رضي الله عنه) بعد صلح الحديبية وفقًا للمعاهدة التي كانت بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين قريش مع احتمال تعرض هذا الصحابي للأذى؛ حفاظًا على العهد الذي عاهد عليه قريشًا ، وهذا من باب الوفاء بالعهد من جهة ، ومن باب تقديم وتغليب المصلحة العامة من جهة أخرى.

على أننا نؤكد أنَّ من المصالح العامة **تلبية حاجات المجتمع الضرورية ومراعاة فقه الواقع وتقديم فقه الأولويات**، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فالأولوية لذلك،

وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فالأولوية لذلك ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدَّين عن المدينين وتفريج كروب الغارمين فالأولوية لذلك ، فقضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم من الواجبات الشرعية والوطنية ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (المعجم الكبير).

ولإعلاء المصلحة العامة أعلى الإسلام من شأن الوصية والصدقة الجارية، فقال نبينا (صلَّى الله عليه وسلم): (ما حَقُّ امرئٍ مُسلمٍ له شيءٌ يُوصي فيه، يبيتُ لَيلَتينِ إلَّا ووصيتُه مكتوبةٌ عندَه) (متفق عليه)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) (صحيح مسلم)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعٌ يَجْرِي أَجْرُهَا لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ مَنْ عَلِمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (مسند البزار).

* * *

الضوابط الشرعية للإنجاب
وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فقد اهتم الإسلام ببناء الأسرة اهتمامًا كبيرًا ، واعتنى بها عنايةً فائقةً تليق بدورها في إعمار الأرض، وبناء المجتمع، واستقرار الأوطان وتنميتها ، وإن من مظاهر هذا الاهتمام ، ودلائل تلك العناية أن شرع الله (عز وجل) الزواج ، وجعله آية من آياته؛ ليكون طريقًا شرعيًّا لبناء الأسرة في صورة تليق بكرامة الإنسان ، وتتوافق مع فطرته السليمة ، قال تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١].

وإن من مقاصد الزواج وأهدافه – بعد شكر نعمة الله (عز وجل)–، بقاء الجنس البشري بالإنجاب والتناسل، قال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١] ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبيه (صلى الله

عليه وسلم)، ومبينًا أن الزواج وطلب الذرية سنة الأنبياء (عليهم السلام) من قبله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: ٣٨].

ولا شك أن الأبناء نعمة من أجَلِّ نعم الله (تعالى) على الإنسان ، فهم هبة الله وعطيته ، يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: ٤٩، ٥٠] ، ويقول سبحانه: {المال وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦] ، ولقد ذكر لنا القرآن الكريم في غير موضع طلب الأنبياء والصالحين للذرية ورغبتهم فيها، فهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات: ١٠٠] ، وهذا زكريا (عليه السلام) يدعو ربه راجيًا: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: ٣٨] ، وإن من صفات عباد الرحمن أن يتضرعوا في دعائهم قائلين: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤].

والمتدبر في هذه الآيات يرى أن طلبهم ودعاءهم كان مقيّدًا دائمًا بطلب الذرية الصالحة النافعة المباركة؛ لأن الغاية والهدف من الإنجاب والتناسل ليس الكثرة والعدد، وإنما العطاء والصلاح ، فكم من قلة يُرجى خيرها وبركتها ، وكم من كثرة لا خير يُرجى منها، ولا بركة تُنتظر ، وهذا

مبدأ عام أقره القرآن الكريم في قوله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

ولقد راعى الإسلام في تشريعاته وأحكامه الضوابط والتوجيهات التي من شأنها أن تحفظ حقوق الطفل ، وتجعله ينشأ نشأة كريمة ، ويلقى رعاية كاملة في جميع مراحل حياته بداية من اشتراط الباءة في النكاح ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (متفق عليه) مع بيان أنَّ (البَاءة) المعتبرة في النكاح -فضلًا عن القدرة البدنية- هي القدرة التامة على بناء أسرة مستقرة، والوفاء بحقها ، وليس مجرد القدرة الجسدية ، وإلا لما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ)، فالخطاب بهذه الجملة موجه لمن يمتلك قدرة جسدية، ولا يستطيع الوفاء بسائر الجوانب الأخرى المطلوبة لإقامة أسرة سوية، بما في ذلك النفقة والسكن والقدرة على تربية الأبناء.

* وإن من أهم مظاهر رعاية الإسلام للطفل أن كفل له **حقه في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين** دون أن يزاحمه طفل آخر خلال تلك المدة ؛ حفاظًا على حقه في التغذية الصحيحة السليمة التي من شأنها أن تساعد على بناء جسده بناءً قويًّا حتى ينمو في صحة جيدة ، فقال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ } [البقرة: ٢٣٣]، وفي ذلك تأكيد على ضرورة أن يكون هناك تنظيم بين الحمل والآخر ، فالإرضاع حق للطفل ، حتى إن الفقهاء اعتبروا

أن الحمل الذي يحدث في وقت الإرضاع إنما هو جَوْرٌ على حق الطفل الرضيع ، بل جَوْر على حق كل من الرضيع والجنين ، فسموا لبن الأم آنذاك لبن الغِيلة ، وكأن كلا من الطفلين قد اغتال أو اقتطع جزءًا من حق أخيه ، مما قد يعرض الطفلين (الرضيع ، والجنين) لمشاكل في النمو ، قد تصاحبهما أو تصاحب أحدهما طوال حياته أو جزءًا منها ، إضافة إلى المشكلات الأسرية التي قد تنتج عن تلاحق عمليتي الحمل والإرضاع ، فالحمل والإرضاع المتتابعان قد يكون لهما أثر سلبي كبير في تدهور العلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ، وانعكاس سلبي على حياة الأطفال وعدم القدرة على الوفاء بحقوقهم .

وعليه فالأولى أن يأخذ كل طفل حقه في مرحلتي الحمل والإرضاع ، وكذلك في التربية السوية ، مع ضرورة الوفاء بحقه في المطعم والملبس والصحة والتعليم ، وقد أجاز النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه العزل ، وهو أحد وسائل تنظيم النسل، ويقاس عليه كل ما يستحدث من الوسائل الصحية الآمنة الميسرة طبيًّا .

إنَّ التقصيرَ في حق الأبناء، وعدم الوفاء بواجباتهم في التربية يعدُ ظلمًا لهم، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يوضح لنا أننا مسئولون عن أبنائنا الذين هم أمانة في أعناقنا ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) (السنن الكبرى للنسائي)، وفي رواية: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ) (مسند أحمد)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ

عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه).

قد يظن البعض توهمًا أن الحديث عن تنظيم العملية الإنجابية يقتصر فقط على الجوانب الاقتصادية وما يترتب عليها من آثار سلبية، ولكننا نؤكد أنه إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية هناك آثار صحية ونفسية وأسرية ومجتمعية يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها ، ثم المجتمع ، فالدولة ، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب ، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية ؛ لذا فإننا نؤكد أن تصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتصل بالقضايا السكانية يدخل في صميم تجديد وتصويب الخطاب الديني وتصحيح مساره .

ومن هذا المنطلق يمكننا فهم حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي حثَّ فيه على طلب الذرية ورغب فيها بقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (مصنف عبد الرزاق) ، وفي رواية قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تزوجوا الوَدُودَ الوَلُودَ فإني مكاثِرٌ بِكُمُ الأمم) (سنن أبي داود) فالمباهاة في الحديث ليست بالكثرة المستهلكة الضعيفة، التي تصبح عالة على الآخرين في طعامها وكسائها ودوائها ، جاهلة متخلفة تعاني الفقر والمرض والتخلف بكل أنواعه العلمي والثقافي والحضاري ، فهذه كثرة سلبية تضر ولا تنفع ، وتفسد ولا تصلح ، عبر عنها النبي (صلى الله عليه وسلم) بغثاء السيل ، بقوله: (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا) فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ،

وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ : (حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (سنن أبي داود) ، وإنما المباهاة في الحديث الشريف تكون بالكثرة القوية ، المؤمنة ، الصالحة ، النافعة ، العاملة ، المنتجة ، الملتزمة أمر ربها وسنة نبيها (صلى الله عليه وسلم) التي يقول فيها : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيف...) (صحيح مسلم)، إنها القوة التي تكون في العقل والفكر ، والثقافة ، والمستوى الإيماني ، والتعليمي ، والاقتصادي ، والعسكري، فالكثرة العددية القوية هي التي تحتاج إليها الأمم حين تكون مواردها الاقتصادية متسعة وتنقصها الأيدي العاملة أو القوى البشرية التي تحافظ على ثرواتها ، وتحمي مقوماتها الاقتصادية ، وحدودها ، ومواردها الطبيعية ، هذه الكثرة هي التي يمكن أن نباهي بها الأمم في الدنيا ، وأن يباهي نبينا (صلى الله عليه وسلم) بها الأمم يوم القيامة .

ولقد جاءت الآثار عن بعض الصحابة (رضوان الله عليهم) بما يدل على فهمهم لهذا المعنى من كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد رُويَ أن سيدنا عَمْرو بن الْعَاصِ (رضي الله عنه) عندما فتح مصر خطب فيهم قائلًا: (يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، إِيَّايَ وَخِلَالًا أَرْبَعًا، فَإِنَّهُنَّ يَدْعُونَ إِلَى النَّصَبِ بَعْدَ الرَّاحَةِ ، وَإِلَى الضِّيقِ بَعْدَ السَّعَةِ ، وَإِلَى الْمَذَلَّةِ بَعْدَ الْعِزَّةِ، إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْعِيَالِ، وَإِخْفَاضَ الْحَالِ، وَالتَّضْيِيعَ لِلْمَالِ، وَالْقِيلَ بَعْدَ الْقَالِ ، فِي غَيْرِ دَرَكٍ وَلَا نَوَالٍ) (شرح مشكل الآثار) ، وفسر ابن عمر (رضي الله عنهما): (جُهْدُ الْبَلاءِ بكَثْرَةُ العِيالِ مَعَ قِلَّةِ الشَّيءِ).

وعلى هذا فإننا نؤكد أن تنظيم الأسرة ضرورة شرعية ووطنية ، وأمر مباح يصل في واقعنا المعاصر ، وحالنا الراهن إلى حد الضرورة الواجبة لبناء جيل قوي مثقف قادر على بناء الحضارة ، ونهضة البلاد ، بفكرٍ واعٍ وعقلٍ مستنيرٍ ، يقدر معنى المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ، وأفضل صورة .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: الأمر بالإحسان إليهم والرحمة بهم ، وحسن رعايتهم ، فمن المقرر شرعا أن الرفق لا يأتي دائما إلا بكل خير ، فالقسوة والغلظة في التربية وتقويم سلوكيات الطفل تؤدّيان في أغلب الأحوال إلى نفوره من المربّي ، وبغضه ، وعدم الانصياع لكلامه ، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحمل الحسن والحسين (رضوان الله عليهما) على كتفيه ويلاعبهما، ويقبلهما ، وكان منهجه (صلى الله عليه وسلم) في التربية هو اللين والرفق ، فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ) (متفق عليه) ، وعن ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ،

قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذْ أَقْبَلَ حَسَنٌ، وَحُسَيْنٌ ، وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ فَحَمَلَهُمَا، ثم قَالَ: (صَدَقَ اللهُ {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن : ١٥]، إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ، وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا) (سنن النسائي)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنِ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) (سنن الترمذي)، وقال (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) : (وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيّ امْرَأَتِكَ) (متفق عليه) .

* ومن مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: **الأمر بالعدل والمساواة بينهم جميعاً**، وقد وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) الآباء والأمهات لهذا المبدأ وضرورة الالتزام به ، بل وقرن الأمر به بالأمر بتقوى الله (عز وجل) ، فعَنْ عَامِرٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ : (أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟) ، قَالَ: لاَ ، قَالَ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ)، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ. (متفق عليه).

ومن العدل والمساواة عدم التفرقة في المعاملة بين الذكر والأنثى؛ حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كانَتْ لَهُ أُنثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، ولم يُهِنْهَا، ولم يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عليها أدخَلَه اللَّه الجنة) (سنن أبي داود).

لقد كانت تلك بعض الضوابط والتوجيهات التي وضعها الإسلام حماية للأطفال ورعاية لهم ؛ لينعموا بحياة كريمة ، فهم شباب المستقبل ، وأمل الأمة المرتقب ، فعلينا أن ندرك جميعًا حجم مسئوليتنا تجاه أبنائنا ، وأن نقوم بها خير قيام ، وأن نعلم أننا مسئولون عنها أمام الله (عز وجل) يوم القيامة .

* * *

محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة
فلنحمل رحمته للعالمين

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

وبعد :

فلقد خلق الله الخلقَ واصطفى منهم الرسل والأنبياء ، واصطفى من الأنبياء والرسل الخمسة أولي العزم (نوحًا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدًا، عليهم الصلاة والسلام) ، واصطفى منهم محمدًا (صلى الله عليه وسلم) فشرح له صدره ، وأعلى شأنه، ورفع ذكره ، وجمع له مكارم الأخلاق والآداب ، فقال سبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

وإنَّ من عظيم الأخلاق التي تحلَّى بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خُلُقَ الرحمة ، فظهرت آثارها علي البشرية كلها ؛ لأنها رحمة ربانية ، قال تعالى : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

وقد كانت الرحمة التي أودعها الله تعالى قلب رسوله (صلى الله عليه وسلم) رحمة عامة وشاملة ، مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء: ١٠٧] ، لم يقل رب العزة رحمة للمؤمنين ولا

للمسلمين، وإنما قال: (رحمة للعالمين)، وقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالبشرية حدًّا يفوق كل تصورات العقول ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، شهدت له بذلك أم المؤمنين خديجةُ (رضي الله عنها) قائلة: (كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقّ...) (متفق عليه)، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي التَّوْرَاةِ، قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب :٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُوا بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا) (صحيح البخاري) ؛ لذا تنوعت مظاهر الرحمة وتعددت في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومن ذلك :

* رحمته (صلى الله عليه وسلم) بغير المسلمين ، وشفقته عليهم ، ورغبته في هدايتهم ، ولا أدل على ذلك مما حدث يوم الطائف ، والذي كان من أشد الأيام صعوبة على النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقد كذبه أهل الطائف إلى الحد الذي حدا بأمين وحي السماء جبريل (عليه السلام) أن ينزل بأمر من ربه (سبحانه وتعالى) ومعه ملك الجبال مُستأمرًا رسول الله

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في أن يُوقع بهم العذاب ، فيجيب الرحمة المهداة (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (متفق عليه) ، بل ولما قيل له (صلى الله عليه وسلم): ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) (صحيح مسلم).

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالجاهلين والعصاة من أمته:** فكان يأخذ بأيديهم ويبين لهم سوء فعلهم برفق ولين ، وحكمة وموعظة لا تقلل من شأنهم أو تَنْتَقِصُ من أقدارهم ، فقد صحّ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) (صحيح البخاري)، وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : وَاثُكْلَ أُمَّاهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونِي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، وَاللَّهِ مَا قَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي ، وَلاَ شَتَمَنِي ، قَالَ : (إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) (صحيح مسلم).

وبلغت رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مداها مع العصاة حين جيء إليه برجلٍ شرَّابٍ للخمر ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى

رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا تَلْعَنُوهُ ، فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (صحيح البخاري) ، إنها رحمةٌ ألّفت حوله (صلى الله عليه وسلم) القلوب ، وأذابت ما فيها من ضغائن، فقد صب رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على أوتار القلوب فانقادت له، وصدق الله العظيم إذ يقول: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالأطفال:** لقد اتسعت رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لتشمل الأطفال ؛ إذ يقول أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا) (صحيح البخاري). وكان (صلى الله عليه وسلم) يسلم على الصبيان ، ويمسح على وجوههم.

وكانَ (صلى الله عليه وسلم) يصَلي وهو حاملٌ أُمامةَ بنتَ زينبَ بِنْتِ رسولِ اللهِ(صلى الله عليه وسلم) على عاتقِه ، فإذا سجدَ وضَعَها، وإذا قامَ حملَها) (متفق عليه)، وما أروع ما قاله أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه): (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ولما مات ولده إبراهيم دمعت عيناه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ)، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضَى رَبَّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ) (متفق عليه).

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة والضعيف** : فقد أخذت المرأة حظها من رحمة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فكثيرًا ما كان يوصي بحسن معاملتها، والرفق بها، وإكرامها، وحمايتها، فالمرأة في شريعته جسدٌ يُرحم ، وعرضٌ يُصان ، وكرامة تحفظ ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (متفق عليه) ، بل وكان يشفق على المرأة حين يسرع الحادي في قيادة الإبل التي تركبها النساء، فيقول له : (رفقًا بالقوارير) (متفق عليه) ، بل بلغ من رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)أنه كان يتجوز في صلاته إذا سمع بكاء الصبي رحمةً بأمه ، قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ) (صحيح البخاري)، وذلك على الرغم من أن قرة عينه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في الصلاة، وهذا من كمال شفقته ورحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالمرأة .

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في رحمته باليتيم، والمسكين، والأرملة، حين جاءه (صلى الله عليه وسلم) رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟) فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ : (ارْحَمِ الْيَتِيمَ ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ) (المعجم الكبير)، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ) ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ: (وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ) (متفق عليه).

هذه الصور العظيمة للرحمة التي أسكنها الله (عز وجل) قلب نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أكبر دليل على سماحة الإسلام ، ورحمته ويسره، فشريعة الإسلام هي شريعة السلام ، والرحمة ، واليسر بكل معانيها ، فلْنتراحم فيما بيننا ، ولنرحم من في الأرض ليرحمنا من في السماء ، فقد قال: (صلى الله عليه وسلم): (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) (سنن أبي داود).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

لقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) للإنسانية على مر التاريخ أعظم الأمثلة في الرحمة بحيث استحق بها أن يكون كما قال الله عنه : {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: ٦] ، وأكد (صلى الله عليه وسلم) على هذا المعنى تصريحًا، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}(صحيح البخاري)، فكان (صلى الله عليه وسلم) ربما ترك عملًا مُعَينًا رفقًا ورحمةً بأمته خشية أن يُفرض عليهم ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ : (إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) لَيَدَعُ الْعَمَلَ

وَهْوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ...) (متفق عليه) ، وقد امتدت تلك الرحمة لتشمل أمته يوم القيامة، إذ يقول (صلى الله عليه وسلم) : (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ) (صحيح البخاري).

ولم تقف مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) عند حدود البشر فحسب، بل اتسعت لتشمل الطير ، والحيوان ، والجماد، فمن رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالطير ، قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) : كنَّا مع رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم) في سَفَرٍ ، فانطلقَ لِحاجَتِه ، فرأينا حُمَّرَةً معها فَرْخَانِ ، فأخذنا فَرْخَيْهَا ، فجاءتِ الحُمَّرَةُ، فجعلت تُعَرِّشُ ، فجاء النبيَّ (صلى الله عليه وسلم)، فقال : (مَنْ فَجَعَ هذهِ بولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها) (سنن أبي داود).

وعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) حَنّ وذرفت عيناه ، فأتاه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ذفراه فسكت، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟)، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (سنن أبي داود).

ومن مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم)، بالجماد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب الناس على جذع نخلٍ، فلما كثر الناس اتخذ منبرًا، فحن الجذع لفراق رسول الله ، (فَأَتَاهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَاحْتَضَنَهُ

فَسَكَنَ، فَقَالَ : (لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (مسند أحمد). ولله درّ الحسن البصري حين قال : (يا معشر المسلمين الخشبةُ تَحِنُّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شوقًا إلى لقائه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه؟) (صحيح ابن حبان).

ما أحوجنا إلى أن نقتدي بأخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سلوكنا، وأخلاقنا، ومعاملاتنا، فنتحلى بالرحمة والرأفة واللين والسماحة، وأن نعامل الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم) ، نشرًا لرسالته، وبيانًا لهديه وسنته، فتتحول الرحمة إلى سلوك عملي في حياتنا ، ونحملها إلى البشرية كلها كما حملها أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس وساقوها إليهم سوقًا جميلًا ، فكان ذلك سببًا في إجلال الناس واحترامهم للإسلام كدين من جهة ، وكأسلوب راق للتعامل الإنساني من جهة أخرى .

* * *

محمد (صلى اللهُ عليه وسلم)
النبي الإنسان

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم : {قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الله (عز وجل) قد بعث رسوله محمدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هاديًا وبشيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا برسالةٍ خاتمةٍ عالميةٍ صالحةٍ ومصلحةٍ لكل زمان ومكان، فاستوجب ذلك أن يكون رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أسوة وقدوة للبشرية كلها قال تعالى: {لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّه وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١].

فلقد كان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أبًا رحيمًا ، وزوجًا عظيمًا ، وصديقًا وفيًّا، وقريبًا سمحًا، وجارًا كريمًا ، وتاجرًا أمينًا صدوقًا، وغير ذلك من الصفات والأخلاق الحميدة التي سمت بخلقه لأن يكون عظيمًا كما وصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله (عز وجل) : {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، فرأى الناس فيه الأنموذج الأمثل للمنهج الذي وضعه الله

للإنسان ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يلتزم منهج القرآن في علاقته مع ربه ، وعلاقته مع الناس كلهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم؛ لذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن خُلق النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قالت : (كَان خُلقُه الْقُرآن) (مسند أحمد) .

إنَّ المتدبر لسيرة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يرى أنه قد أسس قواعد ومبادئ ، وشرع أحكامًا أعلت من قيمة الإنسانية ، وحفظت لها كرامتها وأمنها في صورة حضارية تظهر واضحةً جليةً في كل مناحي حياته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كإنسان ، فقد كان (صلى اللهُ عليْهِ وسلم) زوجًا نعم الزوج ، فهذه زوجه خديجة (رضي الله عنها) تصفه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بكمال إنسانيته فتقول: (إِنّكَ لَتَصِلُ الرّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقّ) (متفق عليه) ، ويظل النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وفيًّا لها بعد وفاتها ، فكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول : (مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ (عَزّ وَجَلّ) خَيْرًا مِنْهَا ، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النّاسُ ، وَصَدّقَتْنِي إِذْ كَذّبَنِي النّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ (عَزّ وَجَلّ) منها الولد) (مسند أحمد).

وفي مشهد إنساني رائع لزوج حنون مع زوجه يزيل النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أثر البكاء عن أم المؤمنين صفية(رضي الله عنها)، فَيمْسَحُ بِيَدَيْهِ الشريفتين عَيْنَيْهَا، ويهدأ من روعها، يقول أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : (كَانَتْ صَفِيَّةُ مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا فَأَبْطَأْتُ فِي الْمَسِيرِ ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: حَمَلْتَنِي عَلَى بَعِيرٍ بَطِيءٍ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا وَيُسْكِتُهَا) (سنن النسائي الكبرى).

لقد عاش النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مع زوجاته أمهات المؤمنين حياةً طيبة تجلت فيها كل مظاهر المودة والرحمة ، والتواضع ولِين الجانب ، فلَم يتعالَ على زوجاته ولم يترفَّع عليهن ، بل أحسن معاملتهن جميعًا منطلقًا في ذلك كله من قول الله (عز وجل): {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ١٩] ، ومن قوله سبحانه : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١].

ومظاهر الإنسانيةٍ في حياته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أبًا وجدًا لا تقل روعة وعظمة عن مظاهر إنسانيته زوجًا : فكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أبًا شفوقًا وجدًا رحيمًا ، يحمل لأبنائه وأحفاده كل معاني الحب والعطف والرحمة، وليس أدل على ذلك من قول الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، عندما أَبْصَرَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ) (متفق عليه)، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضَعًا لَهُ فِي عَوَالِي – قُرى- الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ظِئْرُهُ (زوج مرضعته) قَيْنًا – حدّادًا- فَكَانَ يَأْتِيهِ وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيُدَّخَنُ فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ) (صحيح مسلم).

وكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا دخلت عليه ابنته فاطمة (رضي الله عنها) يقوم لها ويقبلها بين عينيها، ويجلسها عن يمينه، بل ويخصّها ببعض أسراره تكريمًا لها وإعلانًا لمحبته لها، بل وإعلاءً لشأن النساء جميعًا في شخصها (رضي الله عنها) .

ومن المواقف الإنسانية الراقية التي صحت عنه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه سجد يوما فأطال السجود، فلما قضى الصلاة، قَالَ النَّاسُ : "يَا رَسُولَ اللهِ ، لَقَدْ سَجَدْتَ فِي صَلاَتِكَ هَذِهِ سَجْدَةً مَا كُنْتَ تَسْجُدُهَا أَفَشَيْءٌ أُمِرْتَ بِهِ ؟ أَوْ كَانَ يُوحَى إِلَيْكَ؟ قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنِ ابْنِي ارْتَحَلَنِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ) (سنن النسائي).

وعندما كان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يخطب على المنبر وجد الحسن والحسين يتعثران فنزل من على المنبر واستلمهما وقبَّلهما ، فعن عَبْد اللَّهِ بْن بُرَيْدَةَ ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبا بُرَيْدَةَ (رضى الله عنه) يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن١٥]، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا) (سنن الترمذي).

لقد كانت حياته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أعظم حياة عرفتها الإنسانيّة على مر التاريخ ، مفعمة بالحس الإنساني، والفضائل التي حباه الله (عزّ وجلّ) بها، يرعى الحقوق والواجبات، ويؤسس لبناء الأسرة السوية التي بها ينصلح المجتمع وتستقيم الحياة .

ومن مظاهر الإنسانية في حياته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : حسن معاملته لأصحابه ، فكان يشاركهم أفراحهم وأحزانهم ، ويهتم بشئونهم وأحوالهم ، ويراعي مشاعرهم في حياتهم وبعد مماتهم، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، قَالَ: قُلْتُ

لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ (رضى الله عنه) : أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟) قَالَ: نَعَمْ كَثِيرًا، (كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ ، أَوِ الْغَدَاةَ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ) (صحيح مسلم) .

وقد تجلت إنسانيته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في معاملته لأصحابه، عندما وجد في نفوس بعض الأنصار شيئًا أن فضّل عليهم في العطاء بعض حديثي العهد بالإسلام ، فجمعهم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟) ، قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. قَالَ: (أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟) قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ: (أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ) قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا) (مسند أحمد) ، بل كانت رعايته وحسن صحبته لأصحابه لا تنقطع بوفاتهم فهو القائل (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا – أي عيالًا أو دينًا – فَإِلَيْنَا) (سنن أبي داود).

لقد خطا النبي الإنسان محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالحضارة الإنسانية خطوات وثّابة ، جعلتها ترتقي بقيمة الإنسان إلى منزلة سامية، ومكانة عالية لم يعرف التاريخ لها مثيلًا ، حيث رسّخ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) دعائم الأخلاق وأتمها ، وأعلى شأن القيم الإنسانية ورفع عمادها ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) (سنن البيهقي)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ) (متفق عليه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

ومن مظاهر إنسانيته (صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ) مع عامة المسلمين : أنه رغَّب في إدخال السرور عليهم وقضاء حوائجهم ، وتفريج كرباتهم ، وإقالة عثراتهم ، والتيسير عليهم ، وقضاء حوائجهم ، وعيادة مرضاهم، واتباع جنائزهم وغير ذلك من المعاني الإنسانية التي رغب فيها رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وعدها من أحب الأعمال إلى الله (عز وجل) ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ

إِلَى اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ)؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلأَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ) (المعجم الصغير).

ومن مظاهر إنسانيته (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مع الناس جميعًا : تقديره لقيمة الإنسان حيًّا كان أم ميّتًا بغض النظر عن لونه أو جنسه أو معتقده ، فعن قَيْس بْن سَعْدٍ ، وَسَهْل بْن حُنَيْفٍ ، كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ فَقَامَا ، فَقِيلَ لَهُمَا : إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَقَالاَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ ، فَقَالَ : (أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟!) (متفق عليه) ، وكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعود المرضى من المسلمين ومن غير المسلمين.

إن مظاهر الإنسانية في حياة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لا تتوقف عند احترام غير المسلمين، والتعايش معهم في أمن وأمان ، وسلم وسلام فحسب ، بل تمتد إلى إعطاء الحرية لهم في اختيار عقيدتهم ، بل والسماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية ، وتنظيم حياتهم الاجتماعية وفق شريعتهم ، مع عدم التعرض لكنائسهم وصوامعهم ، لا بالهدم ولا بالاستيلاء ، وهو بهذا يؤكد (صلى الله عليه وسلم) أن الدين الذي جاء به دين السماحة والرحمة للناس جميعًا.

* * *

نحو استقبال عام جديد بالأمل والعمل والتخطيط وإرادة التغيير

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} [الإسراء: ١٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِه وصحبِهِ أجمعين، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين .

وبعد :

فإنَّ من القيم العظيمة التي دعا إليها الإسلام ، وجعلها جوهر الحياة ، قيمة الأمل، الذي ينمي في قلب العبد حسن الظن بالله تعالى ، ونحن في استقبال عام جديد يجب أن نتحلى بالأمل وعدم اليأس ، فقد عدّ أهل العلم اليأس والتأييس، والإحباط والتحبيط من الكبائر ؛ لما جاء عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) مُتَّكِئًا فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا الْكَبَائِرُ؟ فَقَالَ: (الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ) (الطبراني في الكبير)، وحين أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) أبا موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل (رضي الله عنهما) إلى اليمن أوصاهما قائلًا: (بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا...) (مسند البزار) .

إنَّ الأمة التي تجعل من الأحداث التي مرت بها دافعًا قويًا إلى الأمل والعمل، وتأخذ من ماضيها لحاضرها ، وتستفيد من الأزمات والمحن

الدروسَ والعبرَ، وتستثمر وقتها في البناء والتنمية، إنما تشق طريقها الصحيح نحو المستقبل؛ لذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) حريصًا في وقت الشدائد على بث روح التفاؤل والأمل في قلوب أصحابه حتى لا تتسارع إلى نفوسهم روح الإحباط أو اليأس ، فعلى الرغم مما تعرض له النبي (صلى الله عليه وسلم) من الأذى هو وأصحابه لم يفارقه الأمل والتفاؤل فيقول (صلى الله عليه وسلم) لهم : (... وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) (البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (أحمد، والحاكم في المستدرك)، فلولا الأمل ما ذاكر طالب ولا اجتهد، ولولا الأمل ما زرع زارع ولا حصد، ولولا الأمل ما فكر والد في إنجاب الولد، يقول الشاعر :

أعلِلُ النفس بالآمالِ أرقُبُها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

غير أنَّ الأمل الذي دعا إليه الإسلام هو الأمل الذي يحمل الإنسان على العمل؛ لأن الأمل بلا عمل أمل أعور أو أعرج لا طائل منه ، ولا فائدة، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : (لَا يَقْعُدُن أَحَدُكُمْ عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً) (إحياء علوم الدين)، وقال الحسن البصري: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، وإن قومًا خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، قالوا : نحسن الظن بالله . وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) (ابن أبي شيبة في المصنف).

لقد نظر الإسلام إلى العمل نظرة توقير وتمجيد ، فرفع قدره وقيمته ، وجعله سبيلًا للرقي والتقدم، وجعل النجاح والإصلاح مرتبطين بالعمل، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف٣٠]، وكان (صلى الله عليه وسلم) يعمل بنفسه، ويقوم على خدمة أهله، فكان : (يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ) (مسند أحمد)، ومدح (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) العامل المنتِج ، بقوله: (اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى) (متفق عليه)، ولأهمية العمل في حياة الأمة كان (صلى الله عليه وسلم) يدعونا إلى العمل حتى في آخر لحظات الدنيا، فيقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ) (مسند أحمد،)، ولا يكفي مجرد العمل، إنما ينبغي أن يكون العمل متقنًا، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (شعب الإيمان)، وإن من إتقان العمل التخطيط له قبل البدء فيه، فالعمل بلا تخطيط يؤدي إلى التخبط ، ومن ثم لا بد أن نضع خططًا قصيرة ، ومتوسطة ، وطويلة المدى لما يُستقبل من أيامنا ، فهل خطط كل منا على المستوى الفردي أو موقعه المؤسسي لإنجاح عمله، وتطوير نفسه ، واستثمار قدراته وطاقاته؟

إنَّ الإنسان الذي يسير على غير هدى لا يعرف له وجهة، ولا يدرك له غاية، لهو إنسانٌ تتوالى عليه الضربات فتسقطه صريع المحن، بائس الحال، شقي النفس، قليل الإنجاز أو عديمه ، قال عمر (رضي الله عنه): "إِنِّي أَكْرَهُ الرَّجُلَ أَنْ أَرَاهُ يَمْشِي سَبَهْلَلًا" أَيْ: لَا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا فِي أَمْرِ الآخِرَةِ ،

والتخطيط للمستقبل لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى، فلا حرج على المسلم أن يقول: إن شاء الله سأفعل كذا ، قال تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الكهف: ٢٣، ٢٤] ، لكن ذلك لا يعني أن يكون أمره عفويًّا بلا دراسة ولا تخطيط، فالتخطيط المتقن أحد أهم عوامل النجاح ،وفي قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) كان التخطيط المدروس سببًا لنجاة البلاد والعباد من مجاعة مهلكة ، وخطر محدق ، فقد وضع نبي الله يوسف (عليه السلام) خطة استغرق تنفيذها خمس عشرة سنة، كما حكي القرآن الكريم على لسانه تأويلًا لرؤيا الملك في قوله تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: ٤٧ – ٤٩] ، لقد وازن سيدنا يوسف (عليه السلام) بين العمل الدؤوب ، والإنتاج المتقن، والاستهلاك الرشيد، والادخار المحكم، وهذه دروس بالغة الأهمية، فلا ينبغي الاكتفاء بعرض المشكلة فقط والوقوف عندها، بل ينبغي السعي لإيجاد المخرج من الأزمة.

ومن أراد أن يتعلم التخطيط فليتأمل هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد كان (صلى الله عليه وسلم) نموذجًا للقائد والمعلِّم، فتراه وهو في رحلة الهجرة يخطط ويدبر ويثق في نصر الله (عزّ وجلّ) أولًا وأخيرًا ، فيأتي بعلي بن أبى طالب (رضي الله عنه) ؛ لينام في فراشه على سبيل التمويه، ويسلك طريقًا وعِرًا غير مأهول ولا معتاد، ويختبئ في الغار حتى

يهدأ الطلب عليه وعلى صاحبه، ويدبر من يأتيه في الغار بالأخبار والطعام، ومن يعفي على الآثار، ويحسن انتقاء من يقوم بكل مهمة، وهُو في هَذا كلّه متوكلٌ على الله تعالى، مُعلنًا أنه في معية الله تعالى، فيقول لصاحبه: {..لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا..} [التوبة: ٤٠].

على أننا نؤكد أن كل ذلك يحتاج إلى عزيمة وإرادة صلبة، إذ لا يمكن أن نقتحم غمار المستقبل بغير عدته، ولا أن نغير واقعنا إلا بعزيمة وإرادة قوية للتغيير في كل المجالات، قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إنَّ التغيير المنشود لا بد أن يشمل تصحيح المفاهيم الخاطئة ، والأفكار المنحرفة ، ومن أهمها ما يتعلق بسماحة الإسلام ، وقبوله لسنن الله الكونية في التنوع والاختلاف ، وترسيخ أسس المواطنة المتكافئة، والعيش المشترك، فإنَّ من الحقائق المؤكدة أن الاختلاف بين الناس سنة كونية من سنن الله (عز وجل) يجب أن نحترمها؛ لأن الناس لا يفكرون بطريقة

واحدة، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود: ١١٨] ، فهذا الاختلاف دليل على أن الله (عز وجل) منح عباده حرية الاختيار ، ومن ثم يجب علينا التعامل في الحياة مع كل الناس على اختلاف أفكارهم وتباين عقائدهم دون السعي إلى الإقصاء للمختلفين منهم.

إن الإسلام دين الله للبشرية كلها ، شرعه لتنظيم حياة الناس جميعًا ، فدعا إلى التواصل والتعايش بين أتباع الديانات ، وجعل العلاقة بين الناس جميعًا تقوم على أساس التعارف والتآلف والتعايش السلمي ، ذلك لأن أصلهم واحد ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، فالناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وعقائدهم إخوة في الإنسانية تنشأ بينهم علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية قوامها التعارف والتآلف، ويتضح هذا من خلال تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع مجتمع المدينة، فقد أسس نظامًا عامًّا أساسه التعايش السلمي بين الناس جميعا ، والمسلمون اليوم في بلادهم، ومع من يعيشون معهم من مختلف الطوائف والملل والنحل هم في أشد الحاجة إلى تطبيق هذا التعايش مع الآخر في سلام وأمان.

ولقد أكدنا أن الذي يحكمنا في هذا الوطن هو الحقوق والواجبات، وأن حماية الكنائس كحماية المساجد سواء بسواء ، وأن من مات منا شهيدًا في الدفاع عن الكنيسة كمن مات منا شهيدًا في الدفاع عن

المسجد، وفي ضوء ترسيخ مفاهيم المواطنة المتكافئة ، والعمل على وحدة الصف في مواجهة التحديات، ولا سيما تحديات الإرهاب الذي يستهدفنا جميعًا لا فرق بين مسلم ومسيحي، أو بعبارة أدق لا فرق بين مصري ومصري فالجميع أبناء وطن واحد لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات، فحماية الوطن بكل مفرداته ومواجهة الإرهاب الغاشم وكشفه والقضاء عليه واجبنا جميعًا مجتمعين متحدين؛ لأن المستهدف أمن الوطن كله، ومن ثمة يجب وجوبًا شرعيًا ووطنيًا الإبلاغ عن أي إرهابي أو خائن أو عميل أو أي عنصر يدعو إلى الإرهاب أو يدعمه أو يأوي أيّا من عناصره، كما يجب التعاون مع كل أجهزة الدولة المعنية بكشف جرائم الإرهاب والتصدي بكل شجاعة وحسم للعناصر الإجرامية ، وعدم التخوف من كشفها وفضحها والإبلاغ عنها لكفِّ شرها عن المجتمع وصيانة له من مؤامرات المتربصين به .

إن الإسلام يؤكد أن حق الدين والوطن يدفعان كل إنسان إلى الأمل والعمل، وفق منهج مدروس من التخطيط والإعداد، سعيًا للإنتاج والإتقان ، والبناء والنماء، لا إلى الكسل والإحباط والتشاؤم، فحبنا لديننا وأوطاننا ينبغي أن يكون حبًّا حقيقيًا يقوم على التضحية في سبيله والعمل لأجله، سعيًا إلى رقيه وتقدمه.

*   *   *

محاسبة النفس

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فلقد خلق الله الخلق بحكمته، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وضمن لهم أرزاقهم ، وأنزل إليهم الكتب ، وأرسل إليهم الرسل ، وجعل مدة تكليفهم في الدنيا بانتهاء أعمارهم ، وجعل جزاءهم على إحسانهم في الدنيا خلودًا دائمًا في جنة عرضها السموات والأرض ، حيث ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

والأيام تمر إثر الأيام ، والأشهر تجري وراء الشهور ، والسنون تتلوها السنون، فتنقضي الأعمار ، وتفنى الأجيال جيلًا بعد جيل، ويقف الإنسان بين يدي الله (عز وجل) للحساب والسؤال عن القليل والكثير ، والصغير والكبير ، والنقير والقطمير ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] ، ويقول سبحانه على لسان

لقمان (عليه السلام) لابنه : {يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦]، فكيف يفرحُ بمرور الأعوام مَن يومُه يهدم شهرَه، وشَهْرُه يهدم سنتَه ، وسنتُه تهدم عُمرَه؟! كيف يفرح مَن يقودُه عُمرُه إلَى أجلِه، وحياتُه إلى موتِه؟ مالم يكن ذلك في طاعة الله وعمارة الكون :

إنـــا لَنفـــرَحُ بالأيـــام نقطعُهـــا وكلُّ يوم مضى يُدني مـن الأجل

فاعملْ لنفسك قبل الموت مجتهدًا فإنما الربح والخسران فـي العمـل

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رضي الله عنه): (ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً ، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ) (صحيح البخاري).

إنَّ العاقل من أدرك بعين البصيرة أنه لا ينجيه من حساب الله في الآخرة إلا لزوم ودوام المحاسبة لنفسه، وصدق المراقبة لله (عز وجل) في الدنيا، فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف يوم القيامة حسابُه ، وحَسُن منقلبه ، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته ، وخاب وخسر، قال وهب بن منبه: "حق على العاقل أن لا يُشغل عن أربع ساعات ، ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه على نفسه ، وساعة يخلو بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ، فإن هذه الساعة عون على الساعات وإجمام للقوة"، وكان عمر (رضي الله عنه) يقول: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا

أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَئِذٍ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا) (سنن الترمذي).

ومعنى محاسبة النفس: ألا يُقدم المكلف على قول أو فعل قبل أن يسأل نفسه هل هو مباح ، أو حرام أو مكروه؟ حتى لا يقع في مغبّته يوم القيامة، فإن فاته ذلك لعذر ما ، فعليه أن يجعل لنفسه ساعة من ليل أو نهار يحاسب فيها نفسه على ما قدّم من أقوال وأفعال ، فإن وجد خيرًا حَمِدَ الله (عزّ وجلّ) وسأله التوفيق والمزيد، وإن وجد غير ذلك فليستدرك ما كان منه من تقصير ، يقول الماوردي في تعريفه للمحاسبة: "هي أن يتصفّح الإنسان في ليله ما صدر منه من أفعال في نهاره ، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل " ، وقال الحارث المحاسبي: "هي التثبّت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك من العَقد بالضمير ، أو الفعل بالجارحة ، حتى يتبيّن له ما يفعل وما يترك ، فإن تبيّن له ما كَرِه الله (عز وجل) جانَبَه بعَقد ضمير قلبه، وكفّ جوارحه عمّا كرهه الله (عز وجل)، ومَنَع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض، وسارع إلى أدائه".

لقد أمر اللّه (عز وجل) عباده بالوقوف مع أنفسهم وقفة صادقة ، ومحاسبتها على ما قدمت قبل الوقوف بين يدي اللّه (عز وجل)، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨] ، أي: لينظر أحدكم أيَّ شيء قدم؟ عملًا صالحًا ينجيه؟ أم طالحًا يُوبِقه؟، كما أقسم سبحانه

وتعالى بالنفس التي تحاسب نفسها ، وتلومها ؛ إكرامًا لها، فقال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}، [القيامة: ١، ٢] قال الفراء: ليس من نفس بارة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرًا قالت: هلا ازددت، وإن عملت شرًّا قالت: يا ليتني لم أفعل. وقال الحسن البصري: "هي النفس المؤمنة ، فإن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلتي؟ وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها، وإن الغافل لا يلوي على أي شيء فعل، ولا يكترث بما اكتسب أو مما اكتسب".

كما أنَّ محاسبة النفس هَدْيٌ من هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) ، حثنا عليه (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: (الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ) (سنن الترمذي)، وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: كنت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فجاءه رجل من الأنصار، فسلّم على النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم قال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟. قال: (أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا). قال: فأي المؤمنين أكيس؟. قال: (أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ) (سنن ابن ماجه)، وكما حَثَّنا عليه (صلى الله عليه وسلم) بقوله ، كان قائمًا به بفعله ، فعن عقبة بن الحارث (رضي الله عنه) قال: صليت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) العصر، فلما سلّم قام مسرعًا دخل على بعض نسائه، ثم خرج ورأى ما في وجوه القوم من

تعجبهم لسرعته، فقال: (ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الصَّلاَةِ تِبْرًا عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يُمْسِيَ - أَوْ يَبِيتَ عِنْدَنَا - فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ) (صحيح البخاري).

ولقد كان الصحابة والتابعون (رضوان الله عليهم أجمعين) يتحلون بهذا الخلق العظيم ، فقد كانوا محاسبين لأنفسهم، وكانوا يحثون بعضهم بعضًا على الالتزام به، فعَنْ حَنْظَلَةَ ، قَالَ : وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ : قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ ، فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي ، وَفِي الذِّكْرِ ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (صحيح مسلم)، فهذه محاسبة إيجابية للنفس ، وسعي صادق لحفظ القلب ، وكمال الإيمان. قال الحسن البصري: رحم الله عبدًا وقف عند همه (أي عزمه على أداء الفعل)، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر ، قال الله تعالى:

{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٢٩ ، ٣٠] ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) (صحيح البخاري)، وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ) (سنن الترمذي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

اتقوا الله (عز وجل) ، واعلموا أنكم موقوفون بين يديه، ومن علم أنه موقوف، علم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول، فليعدّ للسؤال أمام الله

جوابًا ، واعلموا أن من حاسب نفسه في الدنيا خفّ عليه الحساب أمام الله (عز وجل) في الآخرة، وإن من ثمرات محاسبة النفس: أن يعلم العبد حجم تجارته مع ربه، ويتبين له ربحه من خسارته، فإن كان غافلًا بادر بتعجيل التوبة الصادقة ؛ اغتنامًا لقول النبي (صلى الله عليه): (إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) (صحيح مسلم).

ومن ثمراتها: تزكية النفس وتطهيرها من كل الأمراض والأدران، فيتحقق للعبد الفلاح والنجاح، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١٠] .ومن ثمراتها: التغيير نحو الأفضل والأحسن؛ فلا خير فيمن لا يستفيد من ماضيه ويتدارك أخطاءه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥]، فلا يكون الإقلاع عن الذنب في المستقبل إلا بمحاسبة النفس وتقويمها والأخذ بزمامها إلى مرضاة الله (عز وجل).

إذا مَا خلوت الدهر يوما فلا تقل	خلوت ولكـن قل علـي رقيـب
ولا تحسبـن اللَّه يغفـل ساعـة	ولا أن مَـا يخفـى عَلَيْـهِ يغيـب

* * *

العدل وأثره في استقرار المجتمع

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، **وبعد**:

فقد عني الإسلام بالقيم والأخلاق عناية بالغة، فربط بينها وبين العقيدة والشريعة، وأكد أن صلاح الأمم والمجتمعات بالأخلاق الحسنة، والقيم النبيلة؛ لذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (مسند أحمد)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إنَّ مِن أحَبِّكُم إليَّ وأَقربِكُم مِنِّي مجلسًا يومَ القيامَة أَحاسِنكم أخلاقا) (الترمذي، وأحمد)، فبالأخلاق الحسنة تبنى الأمم والحضارات، وتقوم الدول والمجتمعات ، وترتفع راياتها، ويعلو شأنها، والأمم التي لا تقوم على الأخلاق السوية تحمل عوامل سقوطها في أصل بنيانها.

ومن الأخلاق التي عني الإسلام بها خلق العدل، وهو صفة من صفات الله تعالى، أقام به السموات والأرض، وقد قالوا: إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، وهو قيمة إنسانية وحضارية دعت إليها جميع الشرائع السماوية ، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥] ، وقال تعالى مخاطبًا داود (عليه

السلام): {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [سورة ص: ٢٦] ، وأمر الله (عز وجل) به نبينا (صلى الله عليه وسلم)، فقال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...} [الشورى: ١٥] ؛ لذا كان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه وأتباعه بالعدل، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أن رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا ، وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ) (الطبراني في الأوسط).

والعدل: هو إعطاء كل ذي حقٍ حقه من الأقوال والأفعال، والحقوق والواجبات دون تفرقةٍ بين دين ودين، أو جنس وجنس، أو لون ولون، ودون محاباة لأحدٍ على حساب أحد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٣٥] ، وقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨].

ولقد رسَّخ الإسلام قيمة العدل بين سائر البشر ، ليشمل كل طبقات المجتمع دون تمييز أو انحياز ؛ لأنه أساس الملك ، وطريق سعادة الأمم ، وسر أمنها واستقرارها ، وسبب بقائها ودوامها ؛ ولهذا قيل: (إنّ اللهَ ينصرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ كافرةً، ويخذُلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً) ، وقد جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) الإمام العادل في مكانة عالية، ومنزلة سامية يوم القيامة في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله (عزّ وجلّ) في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فبعدله ينصلح المجتمع كله، وبظلمه يفسد المجتمع ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ...) (متفق عليه)، غير أن الإسلام جعل إقامة العدل وتحقيقه مسئولية مشتركة بين الحاكم والرعية ، من خلال التزام كل إنسانٍ بالقيام بمسئوليته ، فإن المسئولية في تحقيق العدالة تقع على كل من ولاه الله أمر مجموعة من الناس في أي مجال من المجالات، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...) (متفق عليه)، فإذا ما التزم كل مسئول مسئوليته التي ولَاه الله (عز وجل) عليها تحقق العدل، وُحفظت الحقوق ، واستقر المجتمع ، وفي ضوء هذا الحديث يتبين لنا أن للعدل صورًا ومجالات متعددة أحاطت بجميع مناحي الحياة ، منها : عدل الرجل في بيته ، بحسن معاملته لزوجته، ومعرفة حقها، وأداء هذا الحق من نفسه، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨] ، وكذلك عدله بين أبنائه، وعدم التفرقة بينهم في المعاملات المادية والمعنوية ؛ لأن ذلك يجلب الشقاق ويزرع الحقد والغل والحسد والكراهية بينهم، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ : لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟). قَالَ: لَا ، قَالَ: (اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ)، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ)، (متفق عليه) وكذلك عدل المرأة في بيت زوجها، بحسن معاملة زوجها ، والعدل بين أبنائها ، والوفاء بحق أسرتها عليها.

كذلك من صور العدل ومجالاته: عدل كل مسئول في نطاق مسئوليته، فعلى كل مسئول أن يتقي الله (عز وجل) في نطاق مسئوليته، فلا يحابي أحدًا، ولا يجامل أحدًا، ويعامل مرؤوسيه كلهم بميزان العدل ، وعليه أن يضع المصلحة العليا للوطن نصب عينيه، وليحافظ على مقدرات الوطن وثرواته ، وليعلم أن الله (عزّ وجلّ) سائله عن كل ذلك ، فعن أنس (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟) (الترمذي، والنسائي في السنن الكبرى).

ومنها: عدل الإنسان مع نفسه ، ويكون ذلك بعدم إيرادها موارد التهلكة، بارتكاب الفواحش والمنكرات، أو الغلو في ممارسة الشعائر والعبادات...إلخ ، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [الطلاق: ١].

ومنها: عدل الإنسان مع غيره، وهذا له عدة صور ، منها : العدل بين المتخاصمين ، في القضاء ، والشهادة ونحوهما ، بدون تمييز أحدٍ على حساب أحد ، وبدون محاباة لأحدٍ دون أحد ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨].

وحينما سرقت المرأة المخزومية وأهمَّ قريشًا شأنُها ، فكلموا أسامة بن زيد (رضي الله عنه) ليكلم فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فكلمه، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (متفق عليه).

وهذا سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) عندما تولى الخلافة خطب في الناس فقال : "أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له" (الجامع لمعمر بن راشد، والبيهقي في الكبرى)، وكتب سيدنا عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (رضي الله عنهما) رسالة هامة، جاء فيها : "آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ" (سنن الدار قطني).

ومنها: العدل في المعاملات المادية حتى يستوفي الناس حقهم في البيع والشراء ، قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٩] ، ومن صوره: العدل في كتابة الدَّيْن ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...} [البقرة: ٢٨٢] ، وكذلك من العدل أداء الحقوق إلى أصحابها دون مماطلةٍ ، ففي الحديث أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ) (متفق عليه).

ألا فما أعظمه من دين ، وما أعرقها من حضارة عرفتها البشرية ، تلك التي يظلل العدل فيها كل أطياف المجتمع ، فلقد سادت في حضارة الإسلام ودولته على مرّ تاريخها وعبر مراحلها المختلفة مفاهيم تهدف إلى القضاء على كل نظم الظلم والاستبداد والتعسف، والاضطهاد ؛ رفعًا لكرامة الإنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه انطلاقًا من قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، **إخوة الإسلام**:

إن من أهم صور العدل التي ينبغي تحقيقها في العصر الحديث ، تحقيق العدل الإداري بين المرؤوسين ، وتحقيق العدل في تقديم الخدمات

للمتعاملين في كل المؤسسات ، ووضع الضوابط الواضحة والحاسمة والصارمة والشفافة والدقيقة ، حتى نصل إلى تحقيق الرضا المجتمعي العام، وقوة الإيمان بالدولة ، وتعميق الولاء والانتماء لها ، وذلك أن الإقصاء الإداري بلا سبب حقيقي واضح ومعلوم يؤدي إلى السخط والاحتقان ، أما الظلم فهو محض ظلمات ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلًا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢]، ويقول سبحانه: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلًا * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧ – ٢٩].

فالعدل نور لصاحبه في الدنيا والآخرة ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الظلم بجميع أنواعه ، وحذّر من دعوة المظلوم، فقال (صلى الله عليه وسلم) لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) حين بعثه إلى اليمن: (...وَاتّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (متفق عليه).

وكان الإمام الماورديّ (رحمه الله) يقول: إنّ ممّا يصلح به حال الدّنيا قاعدة العدل الشّامل ، الّذي يدعو إلى الألفة ، ويبعث على الطّاعة ، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النّسل، ويأمن به السّلطان.(الأحكام السلطانية) .

ومن العدل إنصاف المظلومين في كل مكان، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وعدم الجور أو الاعتداء على حقوق الآخرين، ومن هذا المنطلق

نذكر بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وأخصها حقه في إقامة دولته العربية المستقلة ، وعاصمتها القدس الشريف ، مع تأكيدنا على أن القدس عربية وستظل عربية بإذن الله تعالى ، ففيها أقصانا الشريف ، أولى القبلتين ، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، ومَسرى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ومنطلق معراجه إلى السماوات العلى ، ولا تشد الرِّحال بعد المسجدين إلا إليه ، حيث يقول النَّبِيّ (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى) (متفق عليه)، وصلاة فيه خير من خمسمائة صلاة فيما سواه عدا المسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي ، وقد بارك الله (عز وجل) فيه وحوله، وقال سبحانه : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١] ، وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يعرفوا منزلته ، ويستشعروا مسئوليتهم نحوه .

* * *

الشهامة والمروءة والتضحية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ،

وبعد :

فإن من محاسن الأخلاق ، وكريم الطباع التي إذا تحلى بها المسلم كانت دليلًا على علو همته ، وصفاء نفسه، ورقة قلبه، وشعوره بالآخرين، الشهامة والمروءة والتضحية، وهذه صفات إن دلت فإنما تدل على الجود والكرم والسخاء، وبها ينتشر الود والمحبة والترابط بين أفراد المجتمع ، وبها تسمو الأمم وتعلو الأوطان ، وذلك لأن تقديم العون والنصرة لمن يحتاج إليهما سلوك إسلامي أصيل ، وخلق رفيع ، تقتضيه الإنسانية .

ولقد حثنا القرآن الكريم على فعل الخير ، وبيّن أن الشهامة والمروءة والتضحية طريق الفلاح والنجاح ، وقرن الدعوة إليه بالدعوة إلى عبادة الله (عزّ وجلّ) وطاعته، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧].

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن فعل الخير عمومًا من أعظم أخلاق الأنبياء والمرسلين، ففي سورة الأنبياء يصف ربنا سبحانه وتعالى سبعة عشر نبيًّا من أنبيائه بقوله (عز وجل) : {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠].

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا كاملًا في المروءة والشهامة قبل البعثة وبعدها ، يتصدر المواقف بيقين ثابت ، وإيمان راسخ ، وإنسانية راقية ، وشهامة ومروءة ونبل ، ونفس مطمئنة لا يعتريها فزع أو خوف ، وها هي السيدة خديجة (رضي الله عنها) تشهد للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وتصف حاله قبل البعثة قائلةً : (... أَبْشِرْ فَوَ اللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ) (متفق عليه) .

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، قَالَ: وَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً سَمِعُوا صَوْتًا ، قَالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ (مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ) وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ ، فَقَالَ : (لَمْ تُرَاعُوا ، لَمْ تُرَاعُوا) (متفق عليه) أي: لا تخافوا ولا تفزعوا)، وسأل رجل البراء (رضي الله عنه) فقال: يا أبا عمارة ، أولَّيتم يوم حنين؟. قال البراء : أما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يولّ يومئذ ، كان أبو سفيان بن الحارث آخذًا بعنان بغلته ، فلما غشيه المشركون نزل ، فجعل يقول: (أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ)، قال البراء : فما رئي من الناس يومئذ أشد منه (صلى الله عليه وسلم) (البخاري).

ولقد رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في التحلي بهذه الأخلاق الراقية، والقيم النبيلة ودعا إليها ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ صَنَعَ

إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)، (أبوداود) بل وعدَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك من أحب الأعمال إلى الله (عز وجل)، فقال (صلى الله عليه وسلم): (أَحَبُّ النّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتّى يَتَهَيّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ) (المعجم الكبير للطبراني).

وقد حذّر النبي (صلى الله عليه وسلم) من التخاذل وترك نصرة الضعفاء والمظلومين، فقال: (مَا مِنَ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ) (أبوداود، وأحمد)، ولله درّ القائل:

إِنّي لَتُطرِبُني الخِلالُ كريمَةً ... طَرَبَ الغَريبِ بِأَوبَةٍ وَتَلاقي

وَتَهُزُّني ذِكرى المُروءَةِ وَالنَدى ... بَينَ الشَمائِلِ هِزَّةَ المُشتاقِ

فَإِذا رُزِقتَ خَليقَةً محمودَةً ... فَقَدِ اِصطَفاكَ مُقَسِّمُ الأَرزاقِ

فَالناسُ هَذا حَظُّهُ مالٌ وذا ... عِلمٌ وَذاكَ مَكارِمُ الأَخلاقِ

وقد تحلى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتابعون من بعدهم بكريم الخلال من النجدة والشهامة والمروءة والنبل والإيثار ، فعَنْ

أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا)؟، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ : أَنَا ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ : أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: (ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا) ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى قوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩] (صحيح البخاري).

وعن حذيفة العدويّ ، قال: (انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي، ومعي شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إليّ أن نعم ، فإذا رجل يقول: آه ... فأشار ابن عمّي إليّ أن انطلق به إليه فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص. فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال : آه .. فأشار هشام انطلق به إليه ، فجئته ، فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمّي ، فإذا هو قد مات) (شعب الإيمان للبيهقي).

إن الشهامة والمروءة والتضحية والإيثار ، وفعل الخير عمومًا يزيد من لُحمة التماسك والترابط الوطني والاجتماعي ، ويزرعان المودة، والمحبة، والصفاء بين أفراد المجتمع ، وهذا ما أشار إليه النبي (صلى الله عليه

وسلم) حينما نهى عن التباغض ، والتحاسد ، والتقاطع ، والتدابر ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ...) (متفق عليه).

إن الأخوة الدينية والإنسانية تقتضي أن يقف كل منا بجوار أخيه ، وأن يساعده، وأن يكون في عونه ، وذلك لا يتحقق إلا بالتخفيف عن بعضنا البعض ، بنجدة بعضنا لبعض، بمروءة وشهامة بعضنا مع بعض ، وقد رغب النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذلك ، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ) (متفق عليه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إن أهل النجدة والمروءة والشهامة هم أصحاب التضحيات الغالية ، الذين يترجمون المشاعر والعواطف الإنسانية النبيلة إلى سلوك وعمل فيه

نصرة للمظلوم ، وإغاثة للملهوف ، وإطعام للجائع ، وتأمين للخائف وغير ذلك ، وتتأكد هذه القيم والأخلاق وتسمو فيما بين الإنسان وبين وطنه ، ولم لا ؟ وحب الوطن والانتماء إليه هو أغلى ما يملكه الإنسان بعد الإيمان بالله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، فإن حب الوطن فطرة فطر الله الناس عليها ، وقد أشار الله (عز وجل) إلى منزلة الأوطان في النفوس وحجم المشقة المترتبة على ترك الوطن حينما قرن بين قتل النفس وترك الوطن ، فقال تعالى : {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦].

فلاشك أن الدفاع عن العرض والأرض والكرامة كل ذلك يأتي في أعلى درجات التضحية والشهامة والنجدة والنبل ، فإن أعلى درجات الجود هي الجود بالنفس والتضحية في سبيل الوطن.

ولقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حُرَّاس الوطن بالأمن من النار يوم القيامة، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله) (سنن الترمذي)، فالتضحية من أجل الوطن والحفاظ على نسيجه، والتكاتف في سبيل حمايته والدفاع عنه واجب شرعي وضرورة وطنية ؛ لتحقق العزة والكرامة.

ومما لاشك فيه أن ما تقوم به قواتنا المسلحة الباسلة ورجال الشرطة البواسل في مواجهة الإرهاب ، والحفاظ على أمن الوطن واستقراره أمر يستحق التقدير والدعم والمساندة ، مع تأكيدنا على أن أمنَ الأوطان

مسئولية مجتمعية يجب أن نتعاون جميعًا فيها بما يحقق أمن هذا الوطن واستقراره ، ويرد كيد الخائنين والمتربصين به في نحورهم.

وإذا تقرر هذا الحق للوطن ، فإنَّ حمايته من أي خطر داخلي يقوض بنيانه، أو يزعزع أركانه، أو يروع مواطنيه، أو ينتهك حرماته هو صنو الدفاع عنه ضد أي خطر خارجي ؛ لذا وجب علينا جميعًا أن نعلم أن الدفاع عن الوطن وحمايته والحفاظ على استقراره ، والتضحية من أجله من أعلى صور النجدة والشهامة والمروءة ، وعنوان الإيجابية في حياة الإنسان ، التي تعني الاستجابة والتلبية السريعة لقضاء حوائج الناس ابتغاء مرضاة الله (عز وجل) .

* * *

قضاء حوائج الناس والمجتمع
أولى من تكرار الحج وعمرة النافلة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} [المزمل: ٢٠]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ،

وبعد :

فلاشك أن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يكتمل إسلام المرء المستطيع بدنيًّا وماليًّا إلا بأدائه ، يقول الحق سبحانه : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} ، وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَان) (متفق عليه)، فمن كانت نيته قائمة على الحج ولم يستطع ، بسبب عجز ابتُلي به ، أو مرض أصابه ، أو فقر ، أو قلة مال بلّغه الله (عز وجل) ثواب الحج بإخلاصه في نيته وصدقه مع الله تعالى .

ولقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن فريضة الحج واجبة في العمر مرة واحدة ، فمن زاد على ذلك فهو تطوع ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا) ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ

عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ) (صحيح مسلم)؛ وذلك تيسيرًا منه (صلى الله عليه وسلم) على الناس ، ورفعًا للمشقة والعنت عنهم ، قال تعالى : {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]، وينبغي على المستطيع أن يعجل بحج الفريضة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ الرَّاحِلَةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ) (مسند أحمد).

ومن المعلوم أن قلوب المسلمين تهفو إلى زيارة بيت الله الحرام حجًّا أو عمرةً مصداقًا لقول الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) : {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبراهيم: ٣٦]، ورغبة منهم في تحصيل الأجر والثواب يسعى كثير منهم لتكرار الحج والعمرة مرددين قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالفِضَّةِ) [سنن الترمذي]، غير أن هؤلاء على صدق نيتهم ، ورغبتهم الصادقة غاب عنهم ضرورة ترتيب الأولويات ، ولم يفقهوا أن قول النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا مرتبط برعاية مقتضى حال الأمة والمجتمع اجتماعيًّا واقتصاديًّا ، وسياسيًّا .

فإذا كان المجتمع في سعة من العيش وكان اقتصاد الوطن قويًّا ومتينًا ليس في حاجة إلى من يدعمه ، وليس في أبناء الوطن جائع لا يجد ما يسد جوعته ، أو عار لا يجد ما يستر عورته ، أو مريض لا يجد ما يتداوى

به، فليحج الناس ما شاءوا ، أما إن كانت الأمة أو الدولة في أوضاع اقتصادية تقتضي التعاون والتكاتف للوفاء بحاجات أبنائها واحتياجاتهم الأساسية ، كإطعام الجائع، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وسد ديون الغارمين والغارمات ، والإسهام في توفير الخدمات الأساسية فإن ذلك يكون أكبر أجرًا وأعلى ثوابًا من حج النافلة وتكرار العمرة .

وقد أخذ الإمام أبو حامد الغزالي (رحمه الله) على الذين يحرصون على إنفاق المال في الحج بعد الحج ، والعمرة بعد العمرة ، ولا يوفون بحق الفقراء وأصحاب الحاجات ، فربما تركوا جيرانهم جياعًا لا طعام لهم وذهبوا بنفقاتهم الواسعة لإشباع رغباتهم النفسية في كثرة الحج والعمرة غير مدركين لمقاصد الإسلام الكبرى ، نتيجة عدم إدراكهم لفقه الأولويات وترتيبها .

إن الفهم الصحيح لدين الله (عز وجل) بما يتناسب مع واقع هذا الزمان ، ويراعي أحوال الناس وحاجاتهم يقتضي أن لا تقف حدود الفهم عند بعض مسائل فقه الأحكام على سبيل التلقين أو التلقي دون غوص أو إدراك لفقه المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح مما تغيب معه الغاية الأسمى لمقاصد التشريع .

وعلى ذلك فإن من أوجب الواجبات الشرعية في هذا الزمان على كل مسلم أن ينضبط لديه ميزان الشرع الصحيح ، فيرتب الأوامر الشرعية والتعاليم الإسلامية حسب وضعها في دين الله تعالى ، حتى لا يؤخر ما حقه التقديم أو يقدِّم ما حقه التأخير ، أو يضيع الفاضل بانشغاله بالمفضول .

وقد قيل لبشر الحافي : إن فلانًا الغني كثر صومه وصلاته ، فقال : إنه لمسكين ، لقد ترك حاله ودخل في حال غيره ، إن واجبه إطعام الطعام وبناء الخيام ، فهذا أفضل من تجويعه لنفسه ، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وانطلاقًا من هذا الفهم المقاصدي لأوامر الدين الحنيف ، وترتيبًا لفقه الأولويات فإننا نؤكد على أن تقديم قضاء حوائج الناس والمجتمع أولى من تكرار الحج والعمرة ؛ لأن قضاء حوائج الناس كالتيسير على معسرٍ وقضاء حاجته ، أو الصدقة على فقير وكفايته ، أو فك أسر سجينٍ مدينٍ بدينٍ من فروض الكفايات، ومعلوم أن الوفاء بفروض الكفايات مقدم على جميع النوافل بما فيها تكرار الحج والعمرة ؛ لأن فقه الواقع يحتم على كل إنسان يعمل لمصلحة دينه ووطنه أن يقدم العمل الصالح الذي يتعدد نفعه على المجتمع على العمل الصالح الذي لا يتعدد نفعه ، ولاشك أن نفع قضاء حوائج الناس متسع ومتعدد ، وقد يكون صدقة جارية في إصلاح طريق أو بناء جسر أو مشفى أو مدرسة ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) (صحيح مسلم).

ولقد رغب الإسلام في قضاء حوائج الناس والمجتمع ، بل وجعلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله (عز وجل) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ ، قَالَ: (أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ سُرُورًا ، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا).

وعَنْ عُمَرَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَئِنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثَبِّتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ) (المعجم الكبير).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ) وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) (متفق عليه)، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ) (متفق عليه).

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة، فأمر عند التفاضل بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فلابد من القيام بذلك ، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فلابد من القيام بها ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدين عن المدينين ، وتفريج كروب الغارمين فلابد من القيام بذلك ، وإن

كانت الحاجة في توفير المياه النقية الصالحة لكل أفراد الأمة ، فلابد من القيام بهذا الواجب سدًّا للحاجات الضرورية للمجتمع.

وهذا ما فعله سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عندما اشترى بئر رومة استجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال : (مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ) ، قال سيدنا عثمان: فَابْتَعْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقُلْتُ : إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ بِئْرَ رُومَةَ، قَالَ: (اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ) (سنن النسائي)، فقد كانت حاجة المجتمع ماسة لشراء المياه، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن الإسهام في خدمة المجتمع بقضاء حوائج الناس وتقديم يد العون للفقراء والمحتاجين وخاصة وقت الأزمات والشدائد والمحن من أفضل الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى الله (عز وجل) ، فهو خير وسيلة للقضاء على الفقر ، والجهل ، والمرض، حتى لا يجوع فقير ، ولا يضيع يتيم ، ولا يحتاج مسكين ، ومن ثمَّ يتحقق التوازن المجتمعي ، والعدل بين الناس، وضمان الأمن والأمان .

يروى أن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث ، وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال : ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغى بحجك؟ تزهدًا أو اشتياقًا إلى البيت وابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله ، قال نعم : قال بشر: فإن أصبت مرضاة الله تعالى ، وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى : أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال : اذهب فأعطها لعشرة : مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوي قلبك تعطيها واحدًا فأفعل ، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام.

وفي الختام ينبغي أن نعلم أن قضاء حوائج الناس والمجتمع ، وتحقيق احتياجاتهم الضرورية والأساسية واجب شرعي ووطني، قد يكون واجبا عينيا، وقد يكون واجبا كفائيا، وفق الظروف والمسئوليات والمواقع والقدرة على الإسهام في حل المشكلات ، نسأل الله أن يرزقنا حسن الفهم والفقه ، وأن يهدينا إلى سواء السبيل .

* * *

رعاية المسنين وحماية حقوقهم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[الإسراء: ٢٣،٢٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فلقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه وفضله على سائر مخلوقاته، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠].

ولما كان الإسلام دين الإنسانية والرحمة بأرقى معانيها ، جاء ليُعلي قيمة الإنسان ويحفظ كرامته ، ويرتقي به جسدًا وروحًا ، ويلبي كل متطلباته وفق منهج ونظام محكم دقيق، يحث على البر ، وينهى عن الإثم ، ويأمر بالرحمة ، ويعلي من قدر الإنسانية ، فالإنسانية ليست مجرد كلمة أو شعار بقدر ما هي مسئولية وواجب يرعى حقَّ الضعيف قبل القوي ، والصغير قبل الكبير ، والمريض قبل الصحيح ، وتتجلى مظاهر هذه الإنسانية في رعاية

المسنين ، وكفالة حقوقهم ، وقضاء حوائجهم ، والسعي على مصالحهم ؛ وذلك حرصًا على استقرار حياتهم وإدخال السرور عليهم ، وإعطاء كلّ ذي حق حقه ، وتقوية لأواصر الودّ والمحبة والترابط بين الناس جميعًا ، فإنَّ إكرام الكبير ، ورعاية المسنين وحماية حقوقهم جزء لا يتجزأ من حضارتنا الإنسانية ، فالمجتمع الذي لا يوقر الكبير ، ولا يرحم المسنين مجتمع لا خير فيه ولا حضارة له .

ولم لا ؟ وهم جزء أصيل من نسيج المجتمع ، أدوا ما عليهم فترة شبابهم ، فهم الأكثر حكمة وخبرة في الحياة ، وهم الأمان لغيرهم ، وبهم يتحقق نصر الله تعالى، ويزداد الرزق ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ) (صحيح البخاري) أي: ببركتهم ، وبدعائهم ، وصدق نياتهم .

ولقد حثَّ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) على احترام المسنين وإكرامهم، ومعرفة قدرهم ومكانتهم ، وربط بين ذلك وبين إجلال الله (عزّ وجلّ)، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ) (سنن أبي داود)، فقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر ذي الشيبة على حامل القرآن والحاكم العادل مع علو منزلتهما ؛ إكرامًا لذي الشيبة ، وتقديرًا له ، حتى إن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفى كمال الإيمان عمن أنكر حق ذي الشيبة واستخف به ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ) (مسند أحمد)، وفي الحديث الشريف أيضا : أن شيخًا كبيرًا أراد

النبي (صلى الله عليه وسلم) فأبطأ الجالسون في أن يوسعوا له ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا) (سنن الترمذي)، وفي رواية: (وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا)، وفي رواية ثالثة : (وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا) (سنن الترمذي).

ولقد بلغ من اهتمام الشرع الحنيف بالكبير والمسن أن شرع التخفيف عليهم والتيسير لهم في أداء الطاعات والعبادات رأفة بهم ، فقد أمر الإسلام بتخفيف الصلاة من أجل أصحاب الأعذار وكبار السن ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا صَلَّى أحَدُكُمْ للنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإن فيهم الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبيرَ) (متفق عليه)، وفي رواية : (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ) (مسند أحمد).

وكذلك رخَّص الإسلام لغير القادر منهم في الإفطار مع الفدية في رمضان ، قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [البقرة: ١٨٤] ، والمقصود بالذين يطيقونه : من يتحملون الصوم بمشقة شديدة بالغة ككبار السن، وأصحاب الأعذار ، وفي الحج رُخِّص لهم كذلك في كثير من الأحكام رفعًا للحرج عنهم ، ودفعًا للمشقة ، فهم أكثر فئات المجتمع احتياجًا إلى الاهتمام والرعاية بعد أن أفنوا حياتهم في طاعة الله (عز وجل)، وتربية أبنائهم ، وفي خدمة أوطانهم ومجتمعاتهم.

ومن حقوقهم أيضًا : حسن معاملتهم، ورعايتهم، جسديا، ونفسيا، وروحيا بغض النظر عن دينهم ، فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة أتاه أبو بكر (رضي الله عنه) بأبيه (أبي قحافة)، فلما رآه رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) قال: (هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : (أَسْلِمْ) ، فأسلمَ (صحيح ابن حبان).

وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أروع الأمثلة في حسن معاملة المسنين ورعايتهم ، اقتداء بنبيهم (صلى الله عليهم) ، فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يرى رجلًا مسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فأخذ بيده وذهب به إلى منزله، فأحسن إليه وأعطاه ما يسُدُّ حاجته ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له : (انظر هذا وضُرباءه – أي وأمثاله –، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم) ، وتلا قول الله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة: ٦٠] (الخراج لأبي يوسف) .

إن احترام الكبير وحسن معاملته يبرز عظمة الإسلام وسماحته في اهتمامه بالضعفاء وأصحاب الحاجات ، فالإسلام يدعو إلى التكافل والتراحم ، ويهتم بالفئات الضعيفة التي لا تقوى على مطالب الحياة ، ولقد ربىَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) المجتمع المسلم على حب الخير للغير ، وأمر به ، وتقديم يد العون ومساعدة المحتاجين، وكان عمر (رضي الله عنه) وهو أمير المؤمنين يخرج في سواد الليل فرآه طلحة (رضي الله عنه)، فذهب عمر فدخل بيتًا ، ثم دخل بيتًا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة ، فسألها : (مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلِ يَأْتِيكِ؟)،

قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى (حلية الأولياء).

فالإسلام يدعو إلى التكافل والتكامل بين أفراد المجتمع حتى تسوده روح الوئام والسلام ، وتتحقق الألفة والمودة والترابط بين جميع أبنائه .

فما أحوجنا إلى عودة حقيقية وجادة إلى قيمنا الدينية والمجتمعية والإنسانية ، من إكرام الكبير ، وذي الشيبة ، وذوي الاحتياجات الخاصة.

على أن رعاية المسنين وحماية حقوقهم ، تزداد أهمية ومسئولية إذا كان المسن ذا رحم وصلة ، فيكون أولى بالعناية والرعاية، بل إنه يصل إلى حد المسئولية التي يأثم من يقصر في الوفاء بحقها إذا كان المسن أبًا أو أمًا، حيث يقول الحق سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: ٢٣]، ويقول تعالى : {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان:١٤ ، ١٥] ، ولما جاء أحد الناس يستأذن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد، فقال: يا رسول الله: إني جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإنَّ والديَّ يبكيان، قال له (صلى الله عليه

وسلم): (فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا) (سنن أبي داود)، وأقبلَ رَجُلٌ إِلَى النَبيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ أَبْتَغِي الأجْرَ مِنَ الله تَعَالَى. قَالَ: (فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ)؟ قَالَ: نَعَمْ ، بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: (فَتَبْتَغِي الأجْرَ مِنَ الله تَعَالَى)؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: (فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا) (متفق عليه)، وفي رواية: (جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ في الجِهَادِ، فقَالَ: أحَيٌّ وَالِداكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفيهِمَا فَجَاهِدْ) (متفق عليه).

ومن ثم فعلينا أن نمتثل منهج القرآن الكريم ، وتوجيهات النبي العظيم (صلى الله عليه وسلم) في رعاية المسنين والضعفاء، والرحمة بهم، والعمل على حماية حقوقهم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إذا كان الإسلام قد حثَّ على رعاية المسنين عامَّة وحماية حقوقهم ، فإنه أكد على هذه الرعاية للوالدين وخاصة في سن الشيخوخة ، وجعل ذلك ضربًا من الجهاد في سبيل الله (عز وجل)، فعن كعب بن عجرة (رضي الله عنه) أن رجلًا مرَّ على النبي (صلى الله عليه وسلم) فرأى الصحابةُ (رضي الله عنهم) من جَلَدِهِ ونَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فقالوا: يا رسول الله ، لو

كان هذا في سبيل الله؟!، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْن شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير).

ولا شك أن رعاية الأبوين في الشيخوخة والكبر والقيام على أمرهما يُنجي من الأزمات، ويُفرج الكربات، ويُقيل العثرات في الدنيا والآخرة ، ففي حديث الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصخرة من أعلى الجبل فسدت عليهم باب الغار؛ توسل كل واحد منهم بعمل أخلص فيه لله (عزّ وجلّ)؛ لعله يرفع عنهم ما هم فيه، فكان من توسل الأول ودعائه: (اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَّجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً ، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ...) (متفق عليه).

وإن من سنة الله تعالى في خلقه أنَّ مَن برَّ والديه برَّهُ أبناؤُه ، ومن عقَّ والديه عقَّه أبناؤُه ، فالجزاء من جنس العمل ، فقد روي أن رجلا ضاق بوالده المسن فصنع له وعاء خشبيًّا حتى لا تنكسر منه الأطباق لرعشة

أصابته في يده ، فسأله أصغر أبنائه لمَ صنعتَ هذا الإناء يا والدي ؟ قال : لنضع فيه الطعام لجدك حتى لا ينكسر ، فقال الولد: نعم ، حتى نضع لك فيه الطعام عندما تكون مثل جَدِّي.

إن الاهتمام بالوالدين عند الكبر والعناية بهما هو أقصر الطرق إلى الجنة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ). قيل: من؟ يا رسول الله قال: (مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا ، أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ) (صحيح مسلم). وعن طَيْسَلَة بْن مَيَّاسٍ، قال لي ابن عمر (رضي الله عنهما) : (أَتَفْرَقُ النَّارَ ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟). قلت: إي، والله! قال: (أحيٌّ والداك؟). قلت: عندي أمي. قال: (فَوَ اللَّهِ! لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الكبائر) (الأدب المفرد ، للبخاري).



البر والوفاء

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان:١٤] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

وبعد:

فإن البر والوفاء من القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة المثلى ، التي تورث الطمأنينة والثقة في نفوس الأفراد ، وتؤكد أواصر المحبة والتعاون في المجتمعات ، فالبر: اسم جامع لكل خصال الخير ، ولكل فعل مَرْضِيٍّ عند الله وعند الناس ، وجماع ذلك كله في حسن الخلق ؛ لذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ) (صحيح مسلم) ، كما أن الوفاء والاعتراف بالفضل والجميل لأهل الفضل خلق أصيل لا يتحلى به إلا النبلاء ، وواجب جليل لا يتخلق به إلا العظماء.

ولقد كان لأنبياء الله ورسله (عليهم السلام) الحظ الأوفر من البر والوفاء ، وفي مقدمتهم نبي الله إبراهيم (عليه السلام) الذي امتدحه القرآن قائلًا: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم : ٣٧] ، وقال في شأن سيدنا يحي (عليه السلام) : {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} [مريم:١٤].

والمتأمل في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) يرى أروع الأمثلة للبر والوفاء في مختلف صوره ، ومن ذلك:

برّه (صلى اللّه عليه وسلم) ووفاؤه للسيدة خديجة (رضي اللّه عنها) ، حتى إنَّ أهل السير سمّوا العام الذي توفي فيه عمه وزوجه خديجة (رضي الله عنها) بعام الحزن، وظل النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيًّا لذكراها ، لا يسأم ولا يمل من الحديث عنها ، والثناء عليها ، والاستغفار لها ، وإكرام صديقاتها ، قالت عائشة (رضي الله عنها) : جَاءَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ أَنْتِ؟) قَالَتْ: أَنَا جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ قَالَ: (بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟) قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الْإِقْبَالَ؟ قَالَ: (إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ) (البيهقي في شعب الإيمان) .

ومن ذلك: **برّه ووفاؤه (صلى اللّه عليه وسلم) لأصحابه**، حيث أوصى الأمة كلها بأصحابه، ونهى عن سبهم وإيذائهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ ، وَمَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ) (سنن الترمذي).

ومن المواقف الخالدة الدالة على صدق وفائه (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه: حينما وقف (صلى الله عليه وسلم) يطيب خاطر الأنصار بعد قسمة

الغنائم في حنين قائلًا لهم: (...أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ.....أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ) ، فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (مسند أحمد).

ومن ذلك : **برّه ووفاؤه (صلى الله عليه وسلم) لأمته كلها**، فلا يرضى (صلى الله عليه وسلم) وأحد من أمته في النار، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تَلَا قَوْلَ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فِي إِبْرَاهِيمَ (عليه السلام): {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي}، وَقَولَه تعالى في عِيسَى (عليه السلام): {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: (اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي)، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): (يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟)، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: (يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نسوؤك) (صحيح مسلم).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ

دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) (صحيح مسلم).

وكما كان (صلى الله عليه وسلم) بارًّا وفيًّا لأصحابه وأمته ، كان كذلك **بارًا وفيًّا مع مخالفيه** ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يحفظ الجميل لكل من له فضل عليه ، ففي يوم بدر يتذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) المُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ ذلك الرجل الذي دخل النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مكة في جواره بعد عودته من رحلة الطائف ، فيقول (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ) (صحيح البخاري) ، يقصد أُسَارَى بَدر .

ومن صور برّه ووفائه (صلى الله عليه وسلم) أيضًا : برّه ووفاؤه لوطنه، فها هو (صلى الله عليه وسلم) على الرغم من إيذاء أهل مكة وتكذيبهم له إلا أنه يقف ليلة الهجرة، وينظر إليها ويقول: (إِنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، ولولاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ) (مسند أحمد)، وبعد الهجرة يدعو (صلى الله عليه وسلم) للمدينة، ويقول: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ) (صحيح البخاري) ، ولا شك أن الوفاء والإخلاص للوطن من شيم النبلاء والعظماء ، يقول الأصمعي: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه.

ولله درّ القائل:

إن الوفاء على الكريـم فريضة ... واللؤم مقـرون بـذي الإخـلاف

وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا ... وترى اللئيم مجانب الإنصاف

ويقول الآخر:

إن الكرام إذا ما أيســروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن من أرقى وأنقى صور البرّ والوفاء البرّ بالوالدين ، والوفاء لهما، وإن الشرائع السماوية كلها دعت إلى بر الوالدين والوفاء بحقهما ، وإن الله (عز وجل) أمرنا أن نقتدي برسله الكرام ، فقال سبحانه: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام :٩٠] ، ولقد كان رسل الله جميعًا في غاية البر مع آبائهم ، فهذا نوح (عليه السلام) دعا ربه قائلًا: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح: ٢٨] ، وإبراهيم (عليه السلام) دعا قائلًا: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم:٤٠،٤١] .

وقال في شأن برّ إسماعيل (عليه السلام) بأبيه: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات : ١٠٢] ، وعن برّ نبيه

عيسى (عليه السلام) بأمه قال تعالى: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [مريم: ٣٢] .

بل وأمر الله (عز وجل) الناس عامة ببر الوالدين، فقال سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا *وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٣-٢٤] ، والمتدبر في هذه الآية الكريمة يرى لفتة إنسانية واجتماعية تميز بها الإسلام في حديثه عن بر الوالدين ، في قوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا}، ففيها ما يُشعر بضرورة أن يكون الوالدان في كنف أبنائهم ، وتحت عنايتهم عند الكبر ، لا سيما وأن تلك المرحلة إنما هي مرحلة الضعف التي يحتاج الإنسان فيها إلى عظيم عناية ورعاية .

كذلك يرى المتدبر لكتاب الله (عز وجل) أن الدعوة إلى بر الوالدين جاءت مقرونة بالدعوة إلى توحيد الله (عزّ وجلّ) في ست آيات من كتاب الله ؛ وذلك لعظم منزلتهما ، وجليل قدرهما ، فرضا الله (عز وجل) من رضا الوالدين، وسخطه من سخطهما، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (رِضَا اللهِ مِنْ رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ مِنْ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ) (البيهقي في شعب الإيمان).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا وَاحِدَةٌ بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا، الأولى: قَوْله تَعَالَى: {أَطِيعُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِعْ رَسُولَهُ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ. وَالثَّانِيَةُ: قَوْله تَعَالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يُزَكِّ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ. والثَّالِثَةُ: قَوْله تَعَالَى: {أَنْ اُشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}، فَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ}.(تفسير ابن أبي حاتم)

ولا ينال من بر الوالدين وحقهما أن يكونا على غير الملة ، قال الله تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان : ١٥] أَيْ بِالْمَعْرُوفِ، وَهُوَ الْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْعِشْرَةُ الْجَمِيلَةُ ، وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قُلْتُ : وَهِيَ رَاغِبَةٌ ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: (نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه) .

وإن من أبر البر كما أخبر النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : أن يصل الإنسان من كان يصلهما والداه من أقارب وأصدقاء ، فعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً ، كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ إِنَّهُمُ الْأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ) (صحيح مسلم) .

ومما لا شك فيه أن حق الأم في البر أعظم من حق الأب ، فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ

النَّاس بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟، قَالَ : (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ) (متفق عليه). وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال: (زَوْجُهَا). قلت: فأي الناس أعظم حقا على الرجل؟ قال: (أُمُّهُ) (سنن النسائي الكبرى).

وجَاءَ رجلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ ، فَقَالَ : (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا) (سنن النسائي) .

فلنكن بارِّين بآبائنا وأمهاتنا ، أوفياء لهما ، ولنوقن بأنَّ البر دَيْنٌ يسدد في الحياة قبل الممات مصداقًا لقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اثْنَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّهُ: الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) (التاريخ الكبير للبخاري)، وفي الحديث : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ) (مسند أحمد)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟) ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ – وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ – أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ) (متفق عليه).

وما أحرانا أن نكون أوفياء لديننا ، ووطننا ، وأمتنا ، ولمن يبذلون أرواحهم فداءً للدين، والأرض، والعرض من أبناء قواتنا المسلحة البواسل، ورجال الشرطة الشرفاء .

* * *

الإيجابية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإنَّ إصلاح المجتمعات يحتاج إلى تعاون وتفاعل وتجاوب حتى يؤتي ثماره ويحقق الهدف والغاية المرجوة منه ؛ لذا قال نبي الله موسى (عليه السلام) فيما قصَّه عنه القرآن الكريم: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه : ٢٩ – ٣٢]، فاستجاب له ربه قائلًا: {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه : ٣٦] ، ثم أمرهما بالإيجابية في أداء الرسالة ، فقال سبحانه: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} [طه : ٤٢].

ولما كان الدين الإسلامي دين إصلاحٍ ، وقيم وأخلاق كان من جملة الأخلاق التي دعا إلى التمسك بها: **خلق الإيجابية** ، والتي تعني: شعور الإنسان بمسئوليته تجاه دينه ووطنه، والإسهام في بنائه واستقراره ، وتقدمه بالعمل والإنتاج، فحب الإنسان لوطنه لا يقف عند المشاعر والعواطف والأحاسيس فحسب ، وإنما ينبغي أن يترجم إلى سلوك وعمل ، فالإنسان

الإيجابي: هو الذي يتفاعل مع قضايا مجتمعه ، ويتأثر بمحيطه ويؤثر فيه بكل ما هو نافع.

ولقد دعا القرآن الكريم في العديد من الآيات إلى الإيجابية ، وعدّها من أخلاق المصلحين على مر التاريخ ، وقدم لنا العديد من النماذج التي ينبغي لنا أن نقتدي بها جميعًا ، **منها**:

موقف ذي القرنين حينما وجد بين السدين قومًا لا يكادون يفهمون كلام غيرهم ؛ لبعدهم عن بقية الناس ، وغرابة لغتهم ، وقلة فطنتهم ، وكانوا يعانون من إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض وبغيهم ، فطلبوا من ذي القرنين أن يبني لهم سـدًّا ليتقوا شرهم ، فما كان من هذا القائد الذكي حينما رأى فيهم كسلًا وخمولًا إلا أن أمرهم بالمشاركة معه في البناء ، معلمًا إياهم كيف تكون المشاركة الإيجابية ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: ٩٣ـ٩٥].

ومنها: **موقف مؤمن آل فرعون** الذي جهر بالحق دفاعًا عن نبي الله موسى (عليه السلام)، وفي شأنه قال الله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ

جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨].

وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلًا في الإيجابية مع الإنصاف في آنٍ واحدٍ بموقف تلك النملة مع بني جنسها حينما رأت خطرًا يتهددهم ، ويكاد يهلكهم جميعًا ، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل:١٨] ، فهذه النملة الضعيفة قد اتسمت بالإيجابية ، فلم تكترث لنفسها وحسب ، بل حذرت بني جنسها ، ثم اعتذرت عن سليمان وجنده إن وقع منهم إهلاك للنمل دون تعمد، فقالت: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

وكما حثنا القرآن الكريم على التحلي بالإيجابية ، كذلك جاءت سنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) داعية إليها ، فقد تميزت حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإيجابية قبل البعثة وبعدها ، فقد شهد (صلى الله عليه وسلم) وهو في الخامسة عشرة من عمره حلف الفضول الذي تداعت إليه قبائل قريش واجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غير أهلها إلا نصروه ، وكانوا على من ظلمه يدًا واحدة حتى يردوا إليه حقه ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ) (سنن البيهقي الكبرى).

وفي الخامسة والثلاثين من عمره شارك (صلى الله عليه وسلم) في تجديد بناء الكعبة بحمل الحجارة على كتفيه ، وقضى على بوادر خلاف عظيم كاد يحدث بين بطون قريش آنذاك حينما تنازعوا فيما بينهم رغبة في أن ينال كل منهم شرف وضع الحجر الأسود مكانه ، فنزلوا على رأي رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الذي مُثلت فيه القبائل كلها في وضع الحجر في مكانه.

ثم كان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد البعثة أسوة وقدوة في الإيجابية، كما كان أسوة وقدوة في كل شيء، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أحسنَ الناس، وأشجعَ الناس، وأكرمَ الناس ، وعن عَلِيّ (رضي الله عنه) قال : (كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْه) (المستدرك على الصحيحين للحاكم) ، وقد شارك (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أصحابه في حفر الخندق .

وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : يدعو إلى أن يكون الإنسان إيجابيًّا في جميع أمور حياته، فيقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) (صحيح مسلم)، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً) (صحيح البخاري) .

وكما دعانا نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى الإيجابية وحثنا عليها، فقد حذّرنا من السلبية فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لا يكُنْ أحَدُكُمْ إِمّعَة، يقول: أنا مع الناس ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا) [سنن الترمذي].

وقد جاء رجل إلى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يشتكي من الفقر والحاجة فأمره (صَلَّى الله اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يغير من واقعه ، وأن لا يستسلم لما هو فيه ، وأن ينفض عن نفسه غبار البطالة ، قائلًا: (أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟) قَالَ : بَلَى ، حِلْسٌ (كساء) نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ ، وَقَعْبٌ (قدح) نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : (ائْتِنِي بِهِمَا)، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا ، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِيَدِهِ ، وَقَالَ: (مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟) قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قَالَ: (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلَاثًا) ، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ ، وَقَالَ: (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ) ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عُودًا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: (اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا) ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا ، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ) (سنن أبي داود).

وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يدعو الإنسان إلى أن يكون إيجابيا ، ولو في آخر لحظات الدنيا، فيقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (مسند أحمد).

إن المشاركة الإيجابية خلق أصحاب الهمم العالية التي تعي مسئوليتها تجاه وطنها، وتدرك متطلباته وتحدياته في كل زمان ومكان ، فتقف صامدة

أمام هذه التحديات التي تهدف إلى زعزعة الأمن والاستقرار ، ونشر الفساد وهدم الأوطان ، فتتخذ موقفًا إيجابيًّا نحو هذه التحديات .

كما أن هذه المشاركة الإيجابية هي التي تعمل على إشاعة روح التكافل والتعاون سواءً في قضاء حوائج المحتاجين ، ورفع الكرب عن المكروبين ، أم بالاهتمام بالقضايا الهامة التي تخدم الوطن مثل ترشيد استخدام المياه ، والحفاظ عليها ، والحفاظ على المرافق العامة ، أو على أمن وسلامة الطرق ، والنهي عن الفساد والإفساد .

والمشاركة الإيجابية تعني إتقان العمل ، والإخلاص فيه ؛ لأنه أساس نهضة الأمة ، وبه يعلو شأنها ؛ لذا فقد دعا الإسلام إلى إتقان العمل والإخلاص في أدائه خدمة للدين ورفعة للوطن ، قال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنّ اللهَ (عزّ وجلّ) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (شعب الإيمان للبيهقي) وفي رواية عند البيهقي في السنن: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ العَامِلِ إِذَا عَمِلَ العَمَلَ أَنْ يُحْسِنَ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

فإنَّ المشاركة الإيجابية تعني: اختيار الكفاءات، والاستفادة من أهل الخبرة المخلصين لأوطانهم، وتوسيد الأمر إلى أهله، الذين يصلحون

للقيام به، والنزول على رأيهم إذا كان فيه مصلحة الدين والوطن، وقد دعانا (صلى الله عليه وسلم) إلى اختيار أهل الكفاءة والخبرة ممن نرى فيهم القوة والأمانة، والقدرة على تحمل المسئولية، يقول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ، وخانَ رَسُولَهُ، وخانَ الْمُؤْمِنِينَ) (المستدرك على الصحيحين للحاكم). وفي هذا الصدد نؤكد أن المشاركة في بناء الأوطان، وكل ما يؤدي إلى أمنها واستقرارها ، ودعم صمودها هو من صميم مقاصد الأديان .

وإذ نحن مقبلون خلال أيام على استحقاق وطني يُعد في عصرنا الحاضر من أهم مقومات بناء الدولة ، فإننا نؤكد أن المشاركة الإيجابية والإدلاء بالصوت هو مطلب ديني، وواجب وطني ، وبخاصة في ظل المخاطر والتحديات التي نواجهها، وما آل إليه حال كثير من دول منطقتنا من تفسخٍ وتفككٍ ودمارٍ على أيدي الجماعات الإرهابية العميلة الخائنة، والتي تعد ذراعًا لمن يخططون لتفكيك كل دول المنطقة وتقسيمها وإعادة تشكيل خريطتها من جديد بما يخدم أهداف ومصالح أعدائنا المتربصين بِنَا ، وعلينا أن نُريَ العالم كله مدى حب المصريين لبلدهم، ووفائهم له، ووعيهم بقضايا وطنهم، وإصرارهم على حماية أمنه واستقراره .

ومن هنا ينبغي على كل مصري وطني غيور على وطنه أن يكون على قدر المسئولية ، وأن يشارك مشاركة إيجابية في الإدلاء بصوته ، وأن يعلم أن ذلك أمانة في عنقه تجاه وطنه ، ولكل إنسان بعد ذلك أن يختار من يراه أقدر وأصلح لتحمل المسئولية ، والنهوض بأعباء الأمانة التي يتحملها ،

سائلين الله (عز وجل) أن يحفظ مصر وأهلها من كل سوء ومكروه ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

فما أحوجنا إلى أن نحيا بروح الإيجابية في جميع مناحي حياتنا، رغبة في رفعة أوطاننا وتقدمها ، والوصول بها إلى المكانة التي تليق بها .

* * *

الأمـــل

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥ـ ٦] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإنَّ ممَّا تميزت به الشريعة الإسلامية دعوتها إلى المثل والقيم والأخلاق؛ ولذا فقد حثت أتباعها على التحلي بمكارم الأخلاق ، وعظيم القيم ، ونبيل المثل ، ومن القيم العظيمة التي حثت الشريعة على التحلي بها ، قيمة الأمل.

فالأمل هو شعاع النور الذي يبدد ظلام اليأس في القلوب ، وهو القوة الدافعة للإنسان في تلك الحياة ، يبعث فيه العزيمة والقوة والنشاط ، ويشرح صدره للعمل والعطاء والاجتهاد ، ويخلق فيه الصبر والجِدّ والكفاح والمثابرة ، فلولا الأمل ما ذاكر طالب ولا اجتهد ، ولولا الأمل ما زرع زارع ولا حصد ، ولولا الأمل ما فكر والد في إنجاب ولد ، ولولا الأمل في الجنة ما افتدى الشهداء أوطانهم بأرواحهم ، ولولا الأمل في الربح ما تعرض التجار للمخاطر والأهوال ،...وهكذا .

ومن هنا نقول: إن الأمل والإيمان قرينان متلازمان لا ينفكان ، فالمؤمنون هم أوسع الناس أملًا في الله (عزّ وجل) ، وأكثرهم تفاؤلًا

واستبشارًا، وأبعدهم عن اليأس والتشاؤم، يثقون في الله (عزّ وجلّ) ، ويحسنون الظن به ، ولم لا ؟ والله (عز وجل) يقول في الحديث القدسي : (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي) (متفق عليه) ، فمن كان مع الله كان الله معه ، فالمؤمنون إذا مرضوا لم ينقطع أملهم في الشفاء ، وإذا وقعوا في خطأ لم ييأسوا من رحمة الله وعفوه ، وإذا كانوا في ضيقٍ وهمٍ وغمٍ وثقوا أن مع العسر يسرًا ، وإذا أصابتهم مصيبة صبروا أملًا في الأجر والثواب وثقة في وعد الله لهم بالخلف بالخير .

ومن يتدبر القرآن الكريم يجده مليئًا بالآيات التي تدعو إلى الأمل والتفاؤل ، فهذا نبي الله نوح (عليه السلام) يتحلى بالأمل مع علو الهمة في دعوته لقومه طمعًا في إيمانهم ، فيلبث فيهم داعيًا إلى الله (عز وجل) ألف سنة إلا خمسين عامًا لا يكلّ ولا يملّ ، ولا يقنط ولا ييأس ، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت:١٤] .

وفي قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) نرى الأمل يتدفق تدفقًا واضحًا، في تحقيق رجاء شيخ كبير قد بلغ من الكبر عتيًّا ، وزوجه العجوز التي تخطت سن الإنجاب ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان إبراهيم (عليه السلام): {أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر : ٥٤ـ٥٦].

وهذا نبي الله يعقوب (عليه السلام) ، لا يزال الأمل يملأ قلبه بعودة يوسف (عليه السلام) مع طول غيابه الذي امتد لقرابة أربعين سنة –كما

يقول المفسرون- ، ثم ازداد ألمه وحزنه بفقد ابنه الثاني (بنيامين) ، ومع ذلك لم يفقد روح الأمل في عودتهما ، بل وقدم الأمر بالبحث عن يوسف (عليه السلام) على الأمر بالبحث عن أخيه ، وإن كان (بنيامين) أقربهما غيابًا، فيقول كما قصَّ القرآن الكريم على لسانه: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف : ٨٧] ، ثم تأتي البشارة بتحقق أمله فيقول: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف : ٩٤-٩٦].

وهذا نبي الله زكريا (عليه السلام) على الرغم من كبره، ووهن عظمه، وطعن امرأته في السن يسبق أملُه ألَمَه، ويغلب رجاؤُه سنين عمره، ولا يفقد الأمل في أن يرزقه الله (عزّ وجلّ) بالذرية التي تحمل ميراث النبوة من بعده، يقول الحق سبحانه على لسان زكريا (عليه السلام): {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم:٤-٦].

ومن عظيم توجيهات القرآن الكريم إلى ضرورة استحضار الأمل في كل الأحوال أن **فتح باب التوبة للعصاة والمذنبين** ، قال الله تعالى:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:٥٣] ، وفي الحديث القدسي: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) (سنن الترمذي) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) (صحيح مسلم) ، فلا ييأس مذنب من عفو الله (عز وجل).

ومنها: **فتحُ باب الأمل للمرضى**، ولهم سلوى في قصة سيدنا أيوب (عليه السلام) كما حكى عنه القرآن الكريم: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء : ٨٣ـ٨٤] ، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً) (صحيح البخاري)، فلا ييأس مريضٌ من الشفاء مهما كان داؤه عضالًا ، ولا ييأس عقيم من عدم الإنجاب، فعليهما الأخذ بأسباب التداوي مع التعلق بحبل الأمل في الله .

وكذلك: **فتحُ باب الأمل لكل من كان في ضيق وكرب** ، فهذا نبي الله يونس (عليه السلام) سجينٌ في ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة

البحر ، وظلمة بطن الحوت ، ومع ذلك يتمسك بالأمل ويأوي إلى الركن الشديد ، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ*فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء:٨٧ـ٨٨] ، ولقد بث القرآن الكريم روح الأمل في قلوبنا، وفتح لنا باب الرجاء بأن جعلها قاعدة عامة وليست خاصة بنبي الله يونس (عليه السلام) حيث قال سبحانه: {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} .

ولقد اتسمت دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأمل والتفاؤل ، فكان ديدنه (صلى الله عليه وسلم) بث روح الأمل في قلوب أصحابه بمستقبلٍ مشرقٍ ، وغدٍ باهرٍ لا يعرف شيئًا من اليأس أو الإحباط؛ لأن الإنسان يميل بطبعه إلى كل ما يبث في قلبه روح البُشْرى ، والأمل ، والرجاء في تحقيق مطلوبه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يحب الفأل ، ويكره التشاؤم ، ففي الحديث الشريف أنه (صلى الله عليه وسلم) قال : (...وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ: الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ ، الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ) (متفق عليه) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : (بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا) (متفق عليه).

وعن أبي ذرّ (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ). قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟. قَالَ: (وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ). قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟. قَالَ: (وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق) قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟. قَالَ: (وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ) (متفق عليه) .

وفي الحديث الشريف عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال له: يا معاذ ، فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال: (لَا يَشْهَدُ عَبْدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) ، قلت: أفلا أحدث الناس؟. قال: (لَا، إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلُوا عَلَيْهِ) (مسند أحمد).

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد حثت أتباعها على التحلي بقيمة الأمل والتفاؤل فإنها في نفس الوقت قد حذرت من اليأس والتأييس والإحباط والتحبيط ، حتى إن أهل العلم قد عدّوا ذلك كله من الكبائر ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) : أن رجلًا سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: يا رسول الله ما الكبائر؟. فقال (صلى الله عليه وسلم): (الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالإِيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) (مسند البزار) ، هكذا قرن النبي (صلى الله عليه وسلم) بين الشرك وبين اليأس والتأييس من رحمة الله (عزّ وجلّ) مبالغة في التحذير والتنفير منه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بلا أمل ، فحياة بلا أمل حياة جافة ، عابسة ، فلا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

ونحن نتحدث عن الأمل يجب أن نفرق بين الأمل الصادق والخيالات والأوهام، فالأمل الصادق هو الأمل المقرون بالعمل والأخذ بأسباب الرفعة والتقدم والنماء، أما الخيالات والأوهام فلا تقوم إلا على الأماني المجردة ، وأحلام اليقظة ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُتم عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا) (سنن ابن ماجه) ، فقد ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) الطير تغدو وتروح ، ولم يذكرها ساكنة ثابتة في مكانها والرزق يأتيها حيث هي ، وهو بذلك يلمح إلى أخذها بأسباب الرزق في غدوها ورواحها ، وقد كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: (لَا يَقْعُدَن أَحَدُكُمْ عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً).

ومن رحمة الله (عزّ وجلّ) بنا أنه يحاسبنا على أخذنا بالأسباب من عدمه ، أما النتائج فمردها إليه (سبحانه)، فإن أحسنّا الأخذ بالأسباب وأحسنّا التوكل على الله (عزّ وجلّ) فتح لنا أبواب الأمل في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق : ٢ ـ ٣] ، وقال سبحانه: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق:٤] ، ولله درّ القائل:

ألم تر أنَّ الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع تساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها ... جنته ولكن كل شيء له سبب

ونؤكد أننا سنجني حتمًا ثمرة هذا الأمل الصادق ، وأننا في طريقنا إلى انطلاقة قوية نحو مستقبل مشرق بإذن الله تعالى ، غير أن هذا الأمل

يحتاج إلى مزيد من العمل ، ومزيد من الإتقان ، ومزيد من الإخلاص ، وأن يكون الأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله (عز وجل) زادنا الرئيس نحو المستقبل .

فما بال هؤلاء اليائسين المثبطين المحبطين لا يرون باب الأمل الواسع الذي فتحه الله لعباده ؛ وكأنهم لم يقفوا على سعة رحمة الله ، وما فتحه الله (عز وجل) لعباده من أبواب الأمل في الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [فاطر: ٢] ، ويقول سبحانه : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٩٦].

* * *

فريضة الزكاة
وأثرها في التكافل والتوازن المجتمعي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابه العزيز: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٦٠]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فها نحن على أبواب شهر كريم ، ينبغي لنا أن نستقبله بالتوبة الصادقة، والعمل الصالح ، ومن أهم ألوان العمل الصالح التكافل ، والتراحم ، والشعور بالآخرين ومواساتهم ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنه) ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ) (المعجم الأوسط) .

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المالَ نعمة عظيمة من نعم الله (عز وجل) ، فهو عصب الحياة، وركيزة تطورها، وأحد شِقي زينتها ، ولقد اهتمت الشريعة الغراء بأحكامه، وتنظيم حركته في المجتمع، بأن يُؤخذ من حِلّه، ويُوضع في مَحلِه، ولم لا ؟ وعليه يتوقف أداءُ الكثير من العبادات، وبه يتحقق إعمار الأرض، وتيسير أمور الخلق، وجلب السعادة لهم، ودفع الضر عنهم، ولأهمية المال البالغة كان حفظه مقصدًا من مقاصد الشريعة الإسلامية ، التي لم تترك طريقًا يحفظ موارده، ويصون حرمته إلا سلكته.

وإذا كان ديننا الحنيف قد اعتنى بالمجتمع ككل عناية فائقة فإنه قد أولى أصحاب الحاجات من الفقراء والمساكين والضعفاء عناية خاصة ، وحرص على أن تكون هذه الفئات سعيدة في حياتها ، آمنة في سربها ، مكفولة الحقوق ، محفوظة الكرامة ، ومن ثم فقد فرض الله (عزّ وجلّ) الزكاة تؤخذ من الأغنياء ، وترد على الفقراء ، في صورة إنسانية راقية من صور التكافل المجتمعي ، بل وجعلها ركنًا من أركان الإسلام الخمسة ، لا يكتمل بدونها، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة :١٠٣].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) (متفق عليه)، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث معاذًا (رضي الله عنه) إلى اليمن، فقال له: (إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ

لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (مسند أحمد، الترمذي ، النسائي) .

لقد أوجب الله (عز وجل) الزكاة على عباده، ولأهميتها قرنها سبحانه في كثير من مواضع القرآن الكريم بأعظم الفرائض وأجلها وأعلاها مكانة ، ألا وهي الصلاة تعظيمًا لشأنها، وتنويهًا بذكرها، وترغيبًا في أدائها، وترهيبًا من منعها، أو التساهل فيها ، يقول سبحانه: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة :٣]، وفي موضع آخرَ يقول جل شأنه: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة :١١٠].

ثم شدَّد سبحانه غاية التشديد على من تهاون في أدائها، فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة:٣٤، ٣٥] ، وقال جل شأنه : {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران:١٨٠] .

لقد شُرعت الزكاة في الإسلام لحكم عالية وأغراض سامية تعود على الأفراد والمجتمعات بالفضل العظيم، والخير العميم ، وقد حدد القرآن الكريم مصارفها في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة :٦٠]، ففي هذا التوزيع الإلهي على هذه الأصناف الثمانية الأكثر احتياجًا في المجتمع تحقيق للعدل الاجتماعي ، وضمان لقوة المجتمع وتماسكه واستقراره وأمنه وأمانه ، وترسيخ لأسمى صور التكافل، فقد شملت الآية الفقراء والمساكين ؛ وجعلت كفايتهم ، وسد حاجتهم من أهم الأبواب التي تصرف فيها الزكاة ، حيث بدأت بذكرهم للتأكيد على أولويتهم في استحقاق الزكاة .

فلو أن أهل الأموال جميعهم أخرجوا زكاة أموالهم ، وصرفوها لمستحقيها ، لما بقي في المسلمين فقير ، فعن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (وَيْلٌ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا ، ظَلَمُونَا حُقُوقَنَا الَّتِي فَرَضْتَ لَنَا عَلَيْهِمْ ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأُدْنِيَنَّكُمْ وَلَأُبَاعِدَنَّهُمْ) (المعجم الأوسط) ثم تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: ٢٤، ٢٥] ، ويقول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): (إنَّ اللهَ (عز وجل) فَرَضَ في أَمْوالِ الأَغنياءِ أَقْوَات الفُقَراء، فمَا جَاع فَقيرٌ إلا بِمَا مُتّعَ بِهِ غَني) (البيهقي في شعب الإيمان).

كما شملت الآية الغارمين ، وهم أصحاب الديون الذين استدانوا لحاجة أساسية ، أو ضمنوا دَيْنًا فلزمهم دفع الدين ، أو تحملوا الدين من أجل درء فتنة ، فهؤلاء يأخذون من مال الزكاة ما يفي بديونهم، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لَا تَصْلُحُ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ أَصَابَتْ مَالَهُ جَائِحَةٌ فَيَسْأَلُ حَتَّى يُصِيبَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ بَيْنَ قَوْمٍ فَيَسْأَلُ حَتَّى يُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ حَمَالَتَهُمْ، ثُمَّ يُمْسِكُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، وَرَجُلٍ يَحْلِفُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ ذَوِي الْحِجَا بِاللهِ لَقَدْ حَلَّتِ الْمَسْأَلَةُ لِفُلَانٍ، فَيَسْأَلُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ مَعِيشَةٍ، ثُمَّ يُمْسِكُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، فَمَا سِوَى ذَلِكَ سُحْتٌ) (السنن الكبرى للنسائي) ، وبذلك يتحقق التكافل الاجتماعي الذي يحفظ على المجتمع أمنه واستقراره ، وتسري بين أفراده روح المحبة والمودة والإخاء ، ويتحقق فيه وصف النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (صحيح مسلم) .

ومن بين المصارف التي ذُكرت في الآية (فِي سبيل الله) ويشمل ذلك إعداد الجيوش وتجهيزها للدفاع عن الأوطان والحفاظ عليها، ورد اعتداء المعتدين عنها ، وقد توسع بعض العلماء في معنى قوله: {وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٦٠] ليشمل كل وجوه الخير التي تصلح بها أحوال البلاد والعباد، وذلك كبناء المستشفيات، والمدارس، وتوصيل المياه وتوفيرها للقرى الفقيرة ، وحفر الآبار ، وإنشاء محطات تنقية المياه للمناطق المعدومة التي لا يوجد بها ماء صالح للشرب، إلى غير ذلك من الخدمات العامة ؛ لأن ذلك مما يعود بالإيجاب على المجتمع كله.

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إنَّ إخراج الزكاة باب عظيم للفلاح في الدنيا والآخرة ، وسبب لنيل رضوان الله تعالى ومحبته وبركته ، ووراثة جنة الفردوس، والخلود فيها ، ففي صدر سورة المؤمنون قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [المؤمنون:١ :٤] ، ثم قال سبحانه واصفًا ثوابهم: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون :١٠، ١١].

ومن الحقائق التي ينبغي التأكيد عليها : أن الزكاة حق أصيل في المال، وقد قال سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : ثلاث في القرآن الكريم نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل واحدة منها دون الأخرى ، وهى قوله تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}[المائدة: ٩٢] ، إذ لا تقبل طاعة الله مع معصية رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة : ٤٣] ، فمن ضيّع الزكاة مع وجوبها عليه لم تغن عنه صلاته من الله شيئًا ، وقوله تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[لقمان : ١٤] ، فمن لم يشكر لوالديه جميلهما وصنيعهما لم يشكر الله (عز وجل) .

ومما لا شكَّ فيه أنَّ الزكاة إذا وُظِّفت توظيفًا صحيحًا في مصارفها الشرعية تسد ثغرة كبيرة في احتياجات الفقراء والكادحين والمصالح العامة للوطن، وإذا سَخَت نفس الأغنياء والقادرين بالصدقات والقيام بواجبهم في باب فروض الكفايات من إطعام الجائع، وكساء العاري، ومداواة المريض، وإعانة المحتاج، والإسهام الجاد فيما يحتاج إليه الوطن من إصلاح وسلاح وعتاد فإن وجه الحياة لأي وطن سيتغير، ولن يكون بين أبنائه محتاج ولا متسول.

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام، أن هناك تدابير أخرى جاءت متوازية مع فريضة الزكاة ، للتأكيد على تماسك المجتمع ، وجعله كالبنيان المرصوص يشد بعضه بَعضًا ، فقد جاء في الشريعة الغراء الحث على أنواع من التصدق والإنفاق الذي يدعم دور الزكاة لتحقيق ثمارها المنشودة في استقرار المجتمع ، ومن ذلك قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ فِي الْمَالِ لَحَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ)، ثُمَّ تَلاَ قول الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ...} [البقرة: ١٧٧] (سنن الترمذي).

فإذا لم تَفِ الزكاة بحاجة الفقراء والمساكين، لكثرة عددهم، أو لحدوث نازلة في المجتمع، أو نحو ذلك فإنه من الواجب على أصحاب الأموال أن يقوموا بحاجات ذوي الفقر، والفاقة، وعندما جاء قوم يظهر عليهم أثر الحاجة إلى مجلس النبي (صلى الله عليه وسلم) تغير وَجْهُهُ

رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. الآية} [النساء :١] ثم قرأ قول الله تعالى : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ.. الآية} [الحشر :١٨]، ثم قال : (تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ – حَتَّى قَالَ – وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى اجتمع لهم كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، فتهلل وَجْهَ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) (صحيح مسلم) .

فحري بالأغنياء أن يقفوا بجانب الفقراء، وأن يمدوا إليهم يد الرحمة والمعونة والعطف والإحسان ، وما أجمل المجتمعات التي تتماسك وتتكاتف لتصل بأيدي أبنائها وسواعدهم، وتعاونهم إلى بر الحياة الكريمة الطيبة.

* * *

فضل الصيام وسلوك الصائمين

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...} [البقرة :١٨٥]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فقد اقتضت حكمة الله (عز وجل) أن جعل لعباده مواسم للخير يتجلى عليهم فيها بالنفحات، ويضاعف لهم الأجر والحسنات ، ويمحو عنهم الذنوب والسيئات ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَات، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَةٌ فَلَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) (المعجم الأوسط)، ومن أعظم هذه المواسم شرفًا، وأكثرها فضلًا شهر رمضان، فهو سيد الشهور وأعظمها، وأيامه خير الأيام وأفضلها ، ولياليه أشرف الليالي وأطهرها، شهر تتزين الدنيا كلها فرحًا بقدومه، وتتهيأ فيه الجنة لاستقبال الصائمين، تفتحُ فيه أبوابُ الجنانِ، وتغلقُ فيه أبوابُ النيرانِ، شهر جعل الله صيام نهاره فريضة، وقيام ليله سنة ، بل إنَّ صيامه ركن من أركان الإسلام، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) (متفق عليه) .

وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا هبت نسائم رمضان، يبشر أصحابه (رضوان الله عليهم) بقدومه، ويحثهم على اغتنام أيامه ولياليه بالمسارعة إلى الخيرات، وطلب المغفرة والرحمة ، فإنَّ فضل الله تعالى وعطاءَه فيه للصائمين عظيم ، يقول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، فِيهِ خَيْرٌ يُغَشِّيكُمُ اللَّهُ فِيهِ ، فَتَنْزِلُ الرَّحْمَةُ، وَتُحَطُّ الْخَطَايَا، وَيُسْتَجَابُ فِيهِ الدُّعَاءُ، فَيَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ، وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلَائِكَتَهُ، فَأَرُوا اللَّهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مِنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (مسند الشاميين) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَتُغَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ) (السنن الكبرى للنسائي) .

إنَّ صيام رمضان منحة ربانية تتطلع إليها قلوب المؤمنين ، وتتشوف لبلوغها أفئدة المتقين ؛ ذلك أن الصيام عبادة لا نظير لها من بين العبادات، حيث قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ (رضي الله عنه) عندما سأله : يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي بِعَمَلٍ أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ : (عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ) (مسند أحمد، سنن النسائي) ؛ لذا فقد **اختص الله (عز وجل) الصيام بفضائل كثيرة، منها:**

* **أنَّ الله (عز وجل) قد شرفه بإضافته لنفسه رفعًا لمكانته، وتعظيمًا لشأنه** ، فالصوم سرٌّ بين العبد وربه ، فالصائم قد يكون في موضعٍ خالٍ من الناس وبإمكانه أن يتناول ما حرَّم الله عليه بالصيام فلا يفعل ، لأنه يعلم علم اليقين أنَّ له ربًّا يطَّلع عليه في أمره كله ، فيتركُه لله خوفًا من عقابه، ورغبةً

في ثوابه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : قال الله (عز وجل): (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصّوم فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) (صحيح البخاري).
وفي رواية: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قَالَ اللَّهُ تعالى: إِلاَّ الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، ولِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فم الصائم عند الله أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) (صحيح مسلم) ، لذا يقول أهل العلم : كفى بقوله سبحانه: (الصَّوْمُ لِي) فضلًا له على سائر العبادات .

وقد اختُلف في المراد بقوله سبحانه: (الصَّومُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) مع أن الأعمال كلها لله (عز وجل) وهو الذي يجزي بها ، فقيل : إن الصوم عبادة خالصة لله فلا يدخلها الرياء ، وقيل: المقصود أنه أحب العبادة لدي، والمقدم عندي على غيره، وقيل: سبب الإضافة إلى الله تعالى أن الصيام لم يعبد به غير الله تعالى، بخلاف الصلاة والصدقة والطواف ونحو ذلك .

* ومن فضائل الصيام: **أنه يغفر الذنوب ويمحو السيئات**، فالحق سبحانه وعد الصائمين بالمغفرة والأجر العظيم، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب : ٣٥].

بل لقد ساوى الله (عز وجل) بين الصائمين وحجاج بيته الحرام في مغفرة الذنوب ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) في ثواب الحج: (مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (مسند أحمد) ، أي: رجع خاليًا من الذنوب كيوم ولدته أمه ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في ثواب الصيام : (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه)، فقوله: (غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) تعدل (رَجَعَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) ، بل إن هناك ليلة واحدة من رُزِقَ إحْيَاءُها بالقيام والقرآن والدعاء ، وَوُفِّقَ لطاعة الله فيها غُفِرَت ذنوبه، وهي ليلة القدر، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (صحيح البخاري).

* ومنها: **أنَّ الصوم أحد أبواب الخير ، وخصاله التي تُدخل الجنة،** فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ ، قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ..) (سنن الترمذي).

ويقول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا) فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

(هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ) (سنن الترمذي).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سأل الصحابة يومًا : (مَنْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنْكُمْ صَائِمًا؟)، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ : (مَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: (مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: (مَنْ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ مَرْوَانُ: بَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا اجْتَمَعَت هَذِهِ الْخِصَالُ فِي رَجُلٍ فِي يَوْمٍ ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) (الأدب المفرد).

* ومن فضائل الصيام – أيضًا – : **أنه يشفع لصاحبه يوم القيامة** ، ويقبل الله شفاعته فيدخله الجنة ، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ) قَالَ: (فَيُشَفَّعَانِ) (مسند أحمد).

* ومنها : **أنه أحد أبواب الجنة**، حيث اختصَّ الله (عز وجل) الصائمين دون غيرهم ببابٍ في الجنة يسمى باب الرَّيان ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، فينادي عليهم يوم القيامة أين الصائمون؟ لتقف الخلائق على مكانتهم، وجزاء أعمالهم في الدنيا ، وما خصهم الله به يوم القيامة ، يقول النَّبِيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ)

(صحيح البخاري)، وتعبير النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بقوله : (إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا) ، ولم يقل : (إنَّ للجنة بابًا) ليشعر بأن الباب المذكور فيه من النعيم والراحة ما في الجنة ، فيكون أبلغ في التشوق إليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

* من فضائل الصيام: **أن الدعاء فيه مستجاب، حيث بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) الصائمين باستجابة دعائهم** ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ) (سنن الترمذي)؛ ولقد توسطت آية الدعاء بين آيات الصيام وأحكامه ، فقال سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة : ١٨٦]؛ لتدل دلالة واضحة على ارتباط عبادة الصوم بعبادة الدعاء.

* ومن فضائله : **أن الله (عز وجل) جعل رائحة أفواه الصائمين أطيب عنده من ريح المسك** ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ المِسْكِ) (صحيح البخاري).

وغير ذلك الكثير والكثير من عطاء الله (عز وجل) للصائمين في رمضان ، فالصيام عبادة لا مثيل لها ، وفضائل هذه العبادة العظيمة أكثر من أن تحصى أو تعد ، ويكفى من إكرام الله (عز وجل) لأهل الصيام ما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ) (المعجم الأوسط، صحيح ابن حبان)، فإذا كان الله وملائكته يصلون على المتسحرين، والسحور عون على الصيام، فما ظنك بفضل الصيام ؟.

على أننا نؤكد أنَّ الصيام الذي يبلغ به العبد هذه الدرجات العالية ، هو الصيام الحقيقي الذي يحفظ العبد به جوارحه ويتحلى فيه بالصبر ، ويربي فيه النفس على مراقبة الله (عز وجل) ، وقوة الإرادة وصدق العزيمة ، ويضبط سلوكه وتصرفاته بميزان الشرع الحنيف ، فلا يصخب ولا يجهل ولا يظلم ولا يعتدي ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ، وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ ، إِنِّي صَائِمٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بفطره، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ) (صحيح مسلم).

فالصوم مدرسة لتهذيب السلوك وتقويمه ، وتزكية النفس والسمو بها للوصول إلى الكمال ، وتطهير الجوارح من كل ما يغضب الله (عز وجل)، قال سبحانه : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣]، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ

وَالرَّفَثِ ، فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ ، فَلْتَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ) (صحيحُ ابن خُزَيمة) ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ بِأَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَلَا شَرَابَهُ) (مسند أحمد) ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ) (مسند أحمد) ، ومن أهم السلوكيات التي يجب أن يحرص عليها الصائم في هذا الشهر الكريم عدم الوقوع في الإسراف والتبذير ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء ٢٦، ٢٧] ، ويقول سبحانه: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف :٣١].

*   *   *

رمضان شهر الانتصارات

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران :١٦٠]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعد:

فإن الله (عز وجل) قد اختص شهر رمضان بالعديد من الفضائل ، فهو شهر القرآن ، وهو شهر الرحمة والإحسان ، وهو كذلك شهرُ الانتصارات والفتوحات ، فما من غزوة من الغزوات ، ولا معركة من المعارك التي خاضها المسلمون في هذا الشهر العظيم إلا وقد منَّ الله تعالى عليهم فيها بالنصر والغلبة والتمكين ، فقد كانت حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في شهر رمضان عبادة وعمل ، وكفاح واجتهاد ، ولَم تكن نومًا ولا كسلًا ولا خمولًا .

وفي شهر رمضان أيد الله (عز وجل) المسلمين بالنصر في **غزوة بدر** ، أول معركة فاصلة بين الحق والباطل ، حيث أكرم الله (عزّ وجلّ) المؤمنين بنصر من عنده على قلّة عددهم وعدتهم ، يقول الحق سبحانه: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران : ١٢٣– ١٢٦].

وفي هذه الغزوة خرج جيش المشركين إلى المدينة متجبرًا مختالًا يريد غزو المسلمين في عُقر دارهم ، واستئصال شأفتهم ، ولقد صور لنا القرآن الكريم هذا المشهد في قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [الأنفال :٤٧].

ثمَّ جاء الخبر إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أن المشركين يعدون العدة لغزو المدينة ، وكان أهل المدينة قد بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حمايته داخل المدينة مما يحمون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) للصحابة : (أشيروا عليَّ أيها الناس) فتكلم جماعة من المهاجرين فأحسنوا ، ثم قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ امْضِ لِمَا أَرَاك اللّهُ فَنَحْنُ مَعَك ، وَاَللّهِ لَا نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى : (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلَا إنّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلَا إنّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فَوَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ سِرْت بِنَا إلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونِهِ حَتّى تَبْلُغَهُ ، فأعاد رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (أشيروا علي أيها الناس)، فقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ – وهو سيد الأوس من الأنصار– : وَاَللّهِ لَكَأَنّك تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ : (أَجَلْ) ، قَالَ : فَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غـدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ ، لَعَلّ اللّهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ) خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ) (السيرة النبوية لابن هشام ، البداية والنهاية لابن كثير) ، فكان التأييد والنصر من الله (عز وجل) للمسلمين في شهر رمضان بفضل إيمانهم بالله (عز وجل)، وحسن التوكل على الله ، مع الأخذ بالأسباب المتاحة.

وفي شهر رمضان كان **فتح مكة** في السنة الثامنة من الهجرة ، وسببه غدر قريش وحلفائها من بني بكر ، بحلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بني خزاعة ، حيث هجموا عليهم ليلا وقتلوهم رُكّعًا وسُجَّدًا ، فنهض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون لنجدتهم ، وفي هذا الفتح ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع المثل في مكارم الأخلاق وخاصة في العفو والصفح والتسامح والرحمة ، حيث جمع (صلى الله عليه وسلم) من آذوه وأخرجوه وتآمروا على قتله ، ثم قال لهم : (مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟) قَالُوا : خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ) (السنن الكبرى للبيهقي).

ولما سمع (صلى الله عليه وسلم) أحد أصحابه يقول: "اليَوْمَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ ، اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ"، قَالَ: (بَل اليَوْم يَومُ المَرْحَمَةِ ، هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الكَعْبَةَ ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ) (صحيح البخاري) ، وأعطى (صلى الله عليه وسلم) الأمان لمن دخل الكعبة ، ولمن أغلق على نفسه باب بيته .

وفي شهر رمضان كانت **معركة عين جالوت** : ففي الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـ، استطاع الجيش المصري بقيادة السلطان سيف الدين قطز أن يوقف زحف التتار في معركة عين جالوت ، بعدما اجتاحت جيوش التتار معظم دول العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الهجري ، حتى أسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، ودمروا البلاد وقتلوا خلقًا كثيرًا، حتى وقعت معركة عين جالوت ، فكانت بحق من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام ، حيث انتصر فيها المصريون انتصارًا ساحقًا ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُهزم فيها التتار ، وأدت المعركة لانحسار نفوذهم في بلاد الشام وإيقاف توغلهم إلى غير رجعة .

وأيضًا في رمضان كانت **حرب العاشر من رمضان** (١٣٩٣) هـ، السادس من أكتوبر (١٩٧٣)م ، حرب العزة والكرامة، حيث وفق الله (عز وجل) قواتنا المسلحة الباسلة في تحطيم أسطورة الجيش الذي كان يزعم أنه لا يقهر ، ووجهت إليه ضربة أفقدته صوابه ، وكبحت كبرياءه ، وأجبرت العالم كله على احترام مصر وقواتها المسلحة، وكان شعار الجندي المقاتل: "الله أكبر"، مع الصيام والقيام والقرآن والدعاء الصادق ، فكان النصر المبين ، وطرد المعتدين ، وهنا نُذَكِّر بما قدمته قواتنا المسلحة ومصرنا الغالية من

شهداء عظام رووا أرض الوطن بدمائهم دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعرض ، وما زال عطاء جيش مصر العظيم مستمرًّا في مواجهة الإرهاب الغاشم حتى يقتلعه من جذوره بإذن الله تعالى .

وستظل قواتنا المسلحة الباسلة صمام أمان لمصرنا الغالية ، ولأمتنا العربية والإسلامية ، فرجالها يحرصون على الشهادة حرص غيرهم على الحياة ، وهم على استعداد تام للتضحية بالغالي والنفيس دفاعًا عن تراب هذا الوطن ، وقطع يد أي عابث يريد أن يعبث بأمن الوطن أو استقراره ، فهي على مرِّ التاريخ درع الأمة وسيفها ، والتاريخ خير شاهد .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

فإن من سنة الله (عز وجل) في الخلق أن جعل للنصر أسبابًا من أخذ بها فاز بحلاوة النصر ، ومن خالفها حُرِم النصر ، وقد جاء في القرآن الكريم ، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) نصوص صريحة واضحة ، تبين هذه الأسباب وتحثنا على الأخذ بها ، منها :

* **الإيمان الصادق بالله** (**عز وجل**) ، **والعمل الصالح** ، فالإيمان الصادق يتمثل في: طاعة الله تعالى، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ويتجلى ذلك في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا

الَذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

فإنَّ المسلم الحق يدرك أن النصر لا يأتي إلا من عند الله لعباده المؤمنين ما داموا ينصرون الله سرًّا وعلانية ، وما داموا يستقيمون على منهج الله ، بطاعة أمره واتباع رسوله (صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكم} [محمد :٧] ، فمن نصره الله (عزّ وجلّ) فلا غالِبَ له ، ولن يضُرَّه خُذلانُ الخاذِلين، قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠] ، وقال (جلَّ ذكره): {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ} [الصافات : ١٧١: ١٧٣].

فبالإيمان بالله والعمل الصالح ، يتحقَّق النصر والتمكين للمؤمنين ، قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر : ٥١] ، وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور :٥٥].

* كذلك من عوامل وأسباب النصر : **الصبر والثبات وتحمل المشاق**، ورمضان شهر الصبر والإرادة ، مع تحقيق التقوى والرقابة الدائمة لله (عزّ وجلّ) ، وكل هذا يمنح المسلم من القوة ما يجعله يقف أمام أعدائه ثابت الجأش، قوي الإرادة ، يصبر ويصابر ويرابط إلى أن يحقق الله له النصر ، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] ، فالصبر الذي هو ثمرة الصيام ، هو أيضًا من أسباب النصر، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ) (المستدرك على الصحيحين).

على أن المسلم لا يتوقف صبره على مواجهة العدو في ساحة المعركة فقط، بل يشمل جميع نواحي حياته في طريق دعوته ودفاعه عن هذا الدين ، ومن ثم فالصبر والثبات ، والإكثار من ذكر الله ، من أكبر الأسباب للنصر .

* ومنها : **التوكل على الله (عز وجل) وحده** ، والاعتماد عليه ، مع صدق الأخذ بالأسباب ، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٣] ، وقال سبحانه: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣]. ولقد حثنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على التوكل على الله تعالى فقال: (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِه، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا) (مسند أحمد ، سنن ابن ماجه).

* ومنها: **وحدة الصف والتآلف** ، فإن الوحدة والتآلف تؤدي إلى قوة الأمة وقدرتها على مواجهة التحديات ، قال تعالى: {**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**} [آل عمران: ١٠٣] ، وقال تعالى: {**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} [الأنفال : ٤٦].

وقد أكد نبينا (صلى الله عليه وسلم) هذا المعنى بقوله : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) (صحيح البخاري).

* ومنها : **الأخذ بالأسباب** ، قال تعالى: {**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**} [الأنفال : ٦٠]، وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يأخذ بالأسباب في كل أحواله وغزواته ، لذا كان النصر حليفه .

فحري بنا أن نستعيد روح الانتصارات في رمضان وفي كل مجالات حياتنا لتحقيق التنمية والتقدم ، وتعزيز أركان الحق والعدل ، وحماية الأرض والعرض والكرامة ، حتى تستعيد أمتنا مكانتها ومهابتها بين الأمم والشعوب ، ولا يكون ذلك إلّا بالأخذ بأسباب النصر .

رمضان شهر المراقبة الذاتية
وصناعة الضمير الحي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، القائلِ في كتابه العزيز: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك : ١٢: ١٤]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإنَّ شهر رمضان المبارك بما تضمَّنَه من عباداتٍ وقُرُباتٍ وأعمال صالحة مدرسةٌ تقَوِّم السلوك وتُهذب الأخلاق ، وتجعل المسلم في أعلى ما يكون من الأخلاق الفُضلَى والمُثُل العُليا ، يقول ربُّنا سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة :١٨٣].

فالصيام يربي النفس على مراقبة الله (عز وجل) في السر والعلن ، حيث يغرس في نفس الصائم الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى ، ويعلمه قوة الإرادة ، وضبط النفس ، ففي كثير من الأوقات يكون الطعام والشراب بين يدي الصائم بعيدًا عن أنظار الناس ، ومع ذلك يمتنع عن تناولهما خوفًا من الله (عز وجل) وخشية منه سبحانه ، وعلمه بأن الله تعالى يراه ، فيزداد إيمانه فلا يخاف غير الله ، ولا يخشى سواه ، ومن هنا قال الحق

سبحانه في الحديث القدسي : (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ الطَّعَامَ، وَالشَّرَابَ، وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي) (مسند أحمد).

فالصائم حين يقضي نهار رمضان ممتنعًا عما أحله الله له من الطعام والشراب والجماع يجب أن يصاحب ذلك امتناع عن كل ما حرم الله ، فهو يستشعر دائما بمراقبة الله تعالى له ، ويحرص على أن يكون صومه كما أراده الله تعالى (إيمانًا واحتسابًا) فلا يريد أن ينقص إيمانه بمعصية ، ولا يضيع عليه أجر ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) هَبَاءً مَنْثُورًا) ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: (أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا) (سنن ابن ماجه) .

إنَّ الصائم الحق يظهر أثر صيامه في سلوكه وتعامله مع الناس ، حيث إن الصيام يُعَوِّد صاحبه على ضبط النفس ، والسيطرة عليها ، والقوة على الإمساك بزمامها حتى يتمكن من التحكم فيها ويقودها إلى ما فيه خيرها وسعادتها ، فإنَّ النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، فإذا أطلق المرء لنفسه عنانها أوقعته في المهالك، وإذا ملك أمرها وسيطر عليها تمكن من قيادتها إلى أعلى المراتب وأسنى المطالب، وهذا لا يتحقق إلا لمن صام صومًا حقيقيًّا ، مستشعرًا عظمة ربه بذلك ، وقد صامت بطنه وفرجه ولسانه وجميع جوارحه عن كل ما حرم الله (عز وجل) .

إن مراقبة الله تعالى من أهم القيم السامية والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام ، والمراقبة تعني : دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق

سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ، مستحضرًا قول الله (عز وجل): {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١] .

والمراقبة طريق الإخلاص الذي هو أساس قبول العمل عند الله (عز وجل) ، وقد حثنا الله تعالى على مراقبته في كل أحوالنا وتصرفاتنا ، فقال سبحانه : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة :٧] ، وقال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء :١] .

فإذا راقب الإنسان ربه في كل أحواله انضبط سلوكه وتصرفه ، وحسن عمله واستقامت حياته ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنوا عليه أم لا ، فلا يظلم نفسه ولا يظلم غيره ، حتى وإن غابت عنه رقابة البشر ، لأنه يدرك أن الله تعالى معه حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، فمراقبة الله تعالى تعصم الفرد والمجتمع من الزلل ، وهذه هي التقوى في أبهى صورها التي هي ثمرة الصيام ، والتي أوصى بها النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سيدنا أبا ذرّ حين قال له : (أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ) (مسند أحمد ، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد) .

وقد عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المراقبة بالإحسان كما ورد في حديث جبريل (عليه السلام) حين سأله قائلًا : (فأخبرني عَنِ الإِحْسَانِ؟، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (صحيح مسلم)، فمن علم أن الله يراه حيث كان ، وأنه مطلع على باطنه وظاهره ، وسره وعلانيته ، واستحضر ذلك في خلواته ، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر ، فمراقبة الله تعالى هي ثمرة علم الإنسان بأن الله (عز وجل) ناظر إليه ، رقيب عليه ، مطلع على عمله ، سامع لقوله في كل وقت وحين ، قال تعالى : {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤] ، ولله درُّ الشاعر حيث قال:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ الله يغفُلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيبُ

ألم تر أن اليوم أسرعُ ذاهبٍ ... وأنَّ غدًا للناظرين قريبُ

وتلك منزلة الإحسان العظمى ، وثمرة المراقبة في شهر الصيام ، قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر:١٩].

وقد خَرَجَ ابْنُ عُمَرَ (رضي الله عنهما) فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُ لَهُ ، وَوَضَعُوا سفْرَةً لَهُ ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ ، فَسَلَّمَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : هَلُمَّ يَا رَاعِي ، هَلُمَّ ، فَأَصِبْ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي صَائِمٌ ، فأراد ابْنُ عُمَرَ أن يختبر أمانته وتقواه ، فقال له : أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرْعَى هَذَا الْغَنَمَ ؟ فَقَالَ لَهُ : أَيْ وَاللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ أن يَخْتَبِر وَرَعَهُ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ

فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ : فَمَا عَسَى سَيِّدُكَ فَاعِلا إِذَا فَقدَهَا ، فَقُلْتَ : أَكَلَهَا الذِّئْبُ ، فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَيْنَ اللَّهُ ؟ فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي، وَيَقُولُ : فَأَيْنَ اللَّهُ ؟ فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي فَأَعْتَقَ الرَّاعِيَ، وَوَهَبَ لهُ الْغَنَمَ". (شعب الإيمان) .

على أن هناك فرقًا بين مراقبة الخالق ومراقبة المخلوق ، فمراقبة الخالق هي مراقبة من لا يغفل ولا ينام ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وكم يحتاج المسلم إلى أن يربي نفسه على مراقبة الله دائما ، والعارفون يقولون : (لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله إلا أحسن الله فيما بينه وبين الناس).

والصائم الذي يراقب ربه في صلاته وصيامه وقيامه وركوعه وسجوده يجب أن يراقبه تمام المراقبة في عمله وإنتاجه وسائر تصرفاته ، فكثير من الناس يتقن عمله ويجوّده إن كان مراقبًا من رئيس له ، أو قصد به تحقيق غايات له ، أو سعى إلى السمعة والشهرة ، لأنه يفتقد المراقبة الداخلية التي تجعله يؤدي عمله بإتقان في كل الحالات دون النظر إلى الاعتبارات التي اعتاد بعضهم عليها .

وكما أن شهر رمضان يعلمنا المراقبة الذاتية كطريق من طرق الإصلاح للنفس والمجتمع ، كذلك يساعد على صناعة الضمير الحي اليقظ الذي يخاف من الله (عز وجل) ويسعى لتحقيق مرضاته ، حتى إذا غابت عنه رقابة البشر وهمَّت نفسه بالحرام والإفساد في الأرض تحرك ضميره ؛

فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام ، قال سبحانه: {وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار :١٠: ١٢]، وقال تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٣، ١٤] .

بهذا الضمير الإنساني اليقظ يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل، فتجد صاحبه محافظًا على العبادات والطاعات ، والذكر ، وقراءة القرآن ، وبه ينضبط السلوك والتصرفات ، وتُحفظ الحقوق وتُؤدى الواجبات.

ولقد ربَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على يقظة الضمير ومراقبة الله (عز وجل)، فقد أتى رجلان إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يختصمان في قطعة أرض ليس لأحدٍ منهما بينة ، وكل منهما يدعي أنها له ، وارتفعت أصواتهما ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا) (صحيح البخاري) ، عند ذلك تنازل كل منهما عن دعواه؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد حرك في نفوسهما الإيمان، وارتفع بهما إلى مستوى عالٍ من يقظة الضمير والتهذيب الخلقي ، فكان ذلك حاجزًا لهما عن الظلم وأكل الحرام.

أما إذا مات الضمير وانعدمت المراقبة لله (عز وجل) نتج عن ذلك فساد في الأخلاق والمعاملات ، وكثير من جوانب الحياة ، لذا وجب علينا جميعًا أن نراقب الله تعالى ، ولنحذر أن نكون أجسادًا بلا ضمائر

حية، حتى تتنزل علينا رحمات الله تعالى ومغفرته في هذا الشهر الكريم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

من الصور السلبية التي تدل على موت الضمير وعدم المراقبة لله (عز وجل) : الغش بجميع صوره وأنواعه ، فهو داء عضال وآفة خطيرة ، لا يقتصر خطرها على الفرد فحسب ، بل يمتد خطرها إلى المجتمع كله ، لأن الغش مظهر من مظاهر الكذب ، والكذب أمارة من أمارات النفاق ، ولأن الغش صناعة لا يحسنها إلا المنافقون الكذابون، وهو محرم بإجماع المسلمين ، وصاحبه ليس على طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا على هديه ، حيث يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم) .

وكما يكون الغش في النوع والجودة بإخفاء العيب الموجود في السلعة ، يكون أيضا في المقدار وتطفيف الكيل والميزان ، فقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى بإقامة الوزن بالقسط ، فقال (عز وجل) : {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا} [الإسراء :٣٥] ، فمن تلاعب بالكيل والوزن توعده الله تعالى بالويل والخسران ، فقال سبحانه: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى

النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين : ١: ٣] ، فالواجبَ على البائع أن يَصْدُق في بيعه ، وأن لا يخدَع ولا يغشَّ ولا يخون ، بل يكون إخبارُه صحيحًا صِدقًا ، فمن صدق في بيعه وشرائه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل، ويكفيه شرفًا وفخرًا أن ينال الجنة بفضل الله – تعالى – ورحمته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ) (سنن الترمذي).

ونحن بصدد امتحانات نهاية العام لأبنائنا الطلاب نؤكد أننا بحاجة ماسة بتذكير أبنائنا وبناتنا طلاب العلم ، والقائمين على العملية التعليمية بفضل العلم وآداب تحصيله، وبيان حرمة الغش بكل صوره وأشكاله ، فالغش في الامتحانات فساد كبير ، وتزوير وتدليس ، وإعطاء شهادة أو قيمة لمن لا يستحق على حساب من يستحق ، وهو مما يجعل بناء الفرد هشًّا لا قيمة له ، ويدمر المجتمعات بقتل الكفاءات وتقديم غيرها عليها، كما أنه يورث الأحقاد والضغائن ، ويفتح أبوابًا كثيرة من الفساد ، ونؤكد أن العواطف في العلم تفسده ، ولا تحقق تكافؤ الفرص ، بل هي وبال على الأسرة وعلى المجتمع.

إن مراقبة الله (عز وجل) هي المخرج مما يعانيه المجتمع ، فإنه من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسانٍ حارسًا يحرسه ، أو مراقبًا يراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، لكن من السهل أن نُربيَ في كل إنسانٍ ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إلى الخير لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم .

لذا وجب علينا جميعا وخاصة ونحن في شهر رمضان أن نحيي ضمائرنا بتقوى الله تعالى ، ومراقبته ، حتى تتنزل علينا رحمة الله ومغفرته.

* * *

نبذ الإسلام للعنف والعنصرية والكراهية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيّدَنا ونبيَّنا وحبيبنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ،

وبعد :

فمما لا شك فيه أن من أهم ثمار الاحتفال بميلاد النبي (صلى الله عليه وسلم) التخلق بأخلاقه (صلى الله عليه وسلم) ، واتباع سنته ، والسير على نهجه ، وشريعته التي حذرت من نشر العنف وثقافته ، كما حذَّرت من العنصرية والعصبية التي تفكك المجتمع وتفرق الكلمة ، وتنشر الكراهية بين الناس .

لقد جاءت رسالة رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) داعيةً إلى التسامح والاعتدال ونبذ كل مظاهر العنف والتشدد ، فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينهي عن الغلو ، ويحذر من عاقبته فيقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ) (مسند أحمد)، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)، وكررها ثَلَاثًا) (صحيح مسلم)، والمتنطعون هم المتعصبون والمتشددون الذين يتجاوزون حد الاعتدال في أقوالهم وأفعالهم ؛ لذا فقد جاءت دعوته

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالوسطية والاعتدال ، وما أجمل ما وصف الله به نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩].

إنَّ من المآسي والآثار المذمومة التي تنتج عن التخلق بالعنف، وفظاظة النفس، وقسوة القلب، أنها تذهب بكل خير لدى صاحبها، وتفقده ثمار خصاله الكريمة، وسجاياه القويمة، بل وتمحو كل استجابة طيبة له في النفوس، ومن ثم يتحول حب الناس له إلى بغض وانتقاد، والتفافهم حوله إلى كراهية وابتعاد، من أجل ذلك كان النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يرغب في الرفق واللين، في مقابلة العنف والشدة، امتثالًا لقول الله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون: ٩٦] ، [فصلت: ٣٤] ، فعَنْ عَائِشَةَ، (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) : أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَال : (مَهْلًا يَا عَائِشَةُ ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ) قَالَتْ : أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ : (أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ) (متفق عليه).

لقد أكدت الشريعة الإسلامية على نبذ كل أشكال العنف وصوره وحذرت من الإقدام عليه ، وسلوك طريقه ، لما له من آثار سيئة على الفرد والمجتمع ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قال : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ

رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ جَبْذَةً ، حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَ ، أَوْ صَفْحَةَ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ) (البخاري).

ومن صور العنف التي حاربها الإسلام في المجتمع: العنف ضد المرأة، حيث كانت مظاهر العنف ضد المرأة منتشرة قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أعلى من شأن المرأة ، وصان كرامتها ، وأحاطها بتشريعات عديدة ترعى حقوقها ، وتصون آدميتها ، فقد أسهمت المرأة على مر التاريخ في بناء الحضارة ، والمجتمعات الإنسانية إسهامًا كبيرًا ، فهي نواة المجتمع وركيزة استقراره ، وحاضنة الأطفال، وصانعة الأجيال والأبطال، وعلى قدر عطائها وإسهاماتها تنصلح الأسر والمجتمعات.

ومن ثمّ فقد حرص الإسلام على تغيير النظرة الجاهلية إلى المرأة، ومن ذلك أنه جعل لها ذمة مالية مستقلة ، وكذلك جعل لها حرية الرأي والتعبير ، وأعطاها حقها في التكسب والعيش الكريم دون إضرار بمكانها ومكانتها ، وأوصَى بها النبي (صلى الله عليه وسلم) أمًّا وأختًا وزوجةً وابنةً في غير موطن، فهي أحق الناس بحسن الصحبة، وهي سبب في الجزاء الأوفى، قال (صلى الله عليه وسلم): (لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ ، أَوْ ابْنَتَانِ ، أَوْ أُخْتَانِ ، فَيَتَّقِي اللهَ فِيهِنَّ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) (أبوداود والترمذي وأحمد)، وهي أمانة في رقبة الرجل، (اتقوا اللهَ

في النَّساء ، فإنكَم أخذتموهُنَّ بأمانةِ الله)، ووصى بها وصية عامة : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (متفق عليه).

ولقد حذر الإسلام من العنف ضد المرأة أو الإساءة إليها أو الإضرار بها، قال الله (عز وجل) : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩] ، وقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يَفْرَكْ – أي لا يكره – مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ) أَوْ قَالَ: (غَيْرَهُ) (صحيح مسلم)، وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله تعالى عنها) ، قَالَتْ : (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا) (صحيح مسلم).

وتحقيق المودة والرحمة والسكن بين الزوجين ، كلها أمور لا تستقيم مع وجود العنف ضد المرأة ، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم:٢٣]، ولقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) في سنته على بعض الأوامر التي تُشِيع رُوح المودّة والرحمة ، ومنها نهيه (صلى الله عليه وسلم) عن ضرب النساء أو الاعتداء عليهن ، بقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ) (سنن أبي داود).

وكما حارب الإسلام العنف فقد حارب أيضا العنصرية التي هي أثر من آثار العصبية الجاهلية ، وأكد أن الناس جميعًا في الإنسانية سواء ،

متساوون في الحقوق والواجبات ، لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى ، فعن أبي نضرة (رضي الله عنه)، قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في وسط أيام التشريق فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى...) (أحمد).

ولقد أكد القرآن الكريم على وحدة الأصل البشري للناس جميعًا مهما اختلفت ألوانهم وألسنتهم، وتنوعت أفكارهم، وبلدانهم ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، فميزان التفاضل والكرامة ليس مرده إلى نسب أو مال، أو جاه أو سلطان ، بل إلى صلاح الإنسان وتقواه ، فالدين الذي يجعل التعارف والتواصل بين الناس غاية من غايات خلقهم لا يمكن أن يدعو إلى كراهية بين الناس قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) (مسلم). وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ) (سنن أبي داود)، كما نهى الإسلام عن العصبية حين وصفها بوصف تنفر منه الطباع السليمة ، قائلًا عنها: (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ) (متفق عليه).

لقد أزال الإسلام الفوارقَ التي تقومُ على أساسٍ من الجنس أو العِرق أو اللون ليس بين أتباعه فحسْبُ ، بل كان يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه حتى ولو كان مخالفًا للدين والملَّة ، فعن أنس (رضي الله عنه) أن رجلًا من أهل مصرَ أتى عمرَ بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين ، عائذٌ بك من الظُّلم ، قال: عُذْتَ مُعاذًا، قال: سابقتُ ابنَ عمرٍو بن العاص فسبَقْتُه ، فجعل يضربُني بالسَّوْطِ ويقول: أنا ابنُ الأكرمين، فكتب عمرُ إلى عمرٍو يأمرُه بالقُدوم ، ويقدم بابنه معه ، فقَدِمَ ، فقال عمر : أين المصريُّ؟ خُذِ السوطَ فاضرِبْ، فجعَلَ يَضرِبُه بالسَّوْط، ويقول عمر : اضرِبِ ابنَ الأكرمين. قال أنس : فضَرَب ، فوالله لقد ضَرَبه ونحن نحبُّ ضربَه ، فما أقلَعَ عنه حتى تمنَّيْنا أنه يرفعُ عنه ، ثم قال عمر للمصريِّ: ضَعِ السَّوْطَ على صَلْعةِ عمرو . فقال: يا أمير المؤمنين ، إنما ابنُه الذي ضربَني، وقد استَقَدْتُ منه، فقال عمر لعمرو : مُذْ كم تعبَّدْتُم الناسَ وقد ولدَتْهم أمَّهاتُهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين ، لم أَعْلمْ ، ولم يأتِني . (فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم)

وكما نبذ الإسلام العنف والعنصرية فقد نبذ الكراهية ؛ لأنها الوقود المحرك لكل عدوان ، فديننا الحنيف جعل سلامة الصدر مع المداومة على العبادة خيرًا من العبادة التي تفتقد إلى التواصل الإنساني ، قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ، قَالُوا: بَلَى ، قَالَ : صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ) (سنن أبي داود)، وجعل (صلى الله عليه وسلم) المحبة بين الناس طريقًا إلى الجنة ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ،

وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) (صحيح مسلم) .

ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن خصومة الغير ، والانخراط في أسبابها، وجعل الخيرية لمن يسارع في تحقيق التصالح والوئام ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ ، فَيُعْرِضُ هذَا ، وَيُعْرِضُ هذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ) (متفق عليه).

كما حذَّر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كراهية الإنسان لأخيه ، وربط بين كمال الإيمان وبين سلامة الصدر من الكراهية ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ بِاللَّهِ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه) ، وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) أنه مَرَّ عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَصَابَ ذَنْبًا ، فَكَانُوا يَسُبُّونَهُ ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَجَدْتُمُوهُ فِي قَلِيبٍ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْتخْرِجِيهِ؟» ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: (فَلَا تَسُبُّوا أَخَاكُمْ وَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي عَافَاكُمْ) ، قَالُوا : أَفَلَا تَبْغَضُهُ ؟ قَالَ : (إِنَّمَا أَبْغَضُ عَمَلَهُ ، فَإِذَا تَرَكَهُ فَهُوَ أَخِي) (معمر بن راشد في جامعه، والبيهقي في شعب الإيمان).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إننا في الوقت الذي نعمل فيه على نشر قيم السلام للعالم كله ، ونؤكد على رفضنا لكل ألوان التطرف والإرهاب، ونحث على نبذ كل

ألوان العنف والكراهية والعنصرية ، فإننا نؤكد أيضا وبنفس القوة والحسم أن اتخاذ أي خطوات تجاه انتقاص حقوق أمتنا وسيادتها في القدس مسجدًا أو مدينة إنما يغذي العنصرية والتطرف والإرهاب ، ويولد كراهية وأحقادًا ربما لا يمحوها الزمن تجاه كل القوى الداعمة للكيان الصهيوني في محاولة بسط سيادته على القدس والتمدد في أراضيه ، كما يعمق الكراهية لهذا الكيان الغاصب ، ويدفع إلى الجنوح نحو تطرف لا يمكن أن يقف خطره عند حدود منطقتنا .

ومن ظن أن أمتنا يمكن أن تفرط في أرضها أو مقدساتها فهو واهم ، فهذه الأمة العظيمة قد تمرض ولكنها لا تموت ولن تموت بإذن الله تعالى والقدس والمسجد الأقصى في أعماق وجدانها ، فهو أولى القبلتين ، وثاني المسجدين ، ومَسرى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ومعراجه إلى السماوات العلى ، ولا تشد الرِّحال بعد المسجدين إلا إليه ، حيث يقول النَّبِيّ (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى) (متفق عليه)، وصلاة فيه خير من خمسمائة صلاة فيما سواه عدا المسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي ، (شعب الإيمان).

وقد بارك الله (عز وجل) فيه وحوله، وقال سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١]، وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يعرفوا منزلته، ويستشعروا مسئوليتهم نحوه .

مخاطر التطرف الفكري و الانفلات الأخلاقي

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز : {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين .

وبعد :

فمما لا شك فيه أن وجوه العظمة في ديننا متعددة، وأن من أبرز مظاهر عظمته أنه دين الاعتدال والوسطية ، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] ، ووسطية الإسلام تعني: انتهاج منهج معتدل متوازن يشمل العقيدة والعبادة ، والمعاملات والأخلاق ، وليس هناك شك في أن الشريعة الإسلامية راعت مصلحة الإنسان وطبيعته البشرية دون إفراط أو تفريط ، واشتملت مبادؤها على الوسطية والسماحة واليسر ، قال تعالى: {يرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] ، وقال سبحانه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] ؛ وكان من هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) القصد والاعتدال ، واليسر والسماحة، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ

وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (صحيح البخاري)، وتقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِنَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) بِهَا) (متفق عليه).

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلامُ شرقًا وغربًا ، وارتفعت رايتُه بسماحته ويسره ؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسانِ السوية ، بل إن نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليقول : (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ، قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا) (مسند أحمد).

إن قضية التطرف الفكري التي ابتليت بها الأمة دخيلة على الإسلام ، وإن لم تكن وليدة اليوم ، بل هي قديمة ، لها أسبابها وبواعثها ، ومن أهم أسبابها : الجهل بتعاليم الإسلام ، واتباع أناس جُهَّالٍ ضلُّوا وأضلوا بغير علم، ما بين متطرف في فهم النصوص الدينية ، وما بين متحلل منها ، وما بين صاحب مصلحة يتاجر بدين الله في سبيل تحقيقها ، ولقد بزغ التطرف الفكري مبكرًا في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) وَهْوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ ، وَهْوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ فَقَالَ: (وَيْلَكَ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ) فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَقَالَ: (دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ وَصِيَامَهُ

مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ...) (متفق عليه).

ومن أجل المحافظة على هذه الوسطية ، وذلك الاعتدال حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كل مظاهر الغلو وخاصة الغلو في التدين، فأنكر على من بالغ من أصحابه في التعبد والتقشف مبالغةً تخرجه عن حدّ الاعتدال ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) (مسند أحمد)، وحينما دَخَلَ النبي (صلى الله عليه وسلم) الْمَسْجِدَ فَرَأَى حَبْلًا مَمْدُودًا بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: (مَا هَذَا الْحَبْلُ؟) ، قَالُوا: لِزَيْنَبَ تُصَلِّي ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ، فَقَالَ: (حُلُّوهُ، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ) (متفق عليه)، فالإسلام يرفض الغلو والتطرف والتشدد في الدين؛ لأنه يتناقض مع ما يتميز به من اعتدال وقَصْد.

فالتطرف شجرة خبيثة لا تثمر إلا التنازع والتدابر والشقاق والعداوة والبغضاء ، حتى يصل الأمر في نهايته إلى سفك دماء الأبرياء ، واستباحة أموالهم وأعراضهم، وإشاعة الرعب والخوف، واستهداف الأمن والأمان والاطمئنان، وكلها أعمالٌ الإسلام بريء منها ، فديننا الحنيف حذّر من تفزيع الناس ، ونهى عن ترويع الآمنين وتخويفهم ولو على سبيل المزاح ، وحرّم التعدي عليهم؛ لأنه إجرام تأْباه الشرائع السماوية والفطر السوية، قال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ) (صحيح مسلم)، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيّ (صلى الله عليه وسلم) فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ

مَعَهُ ، فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا) (سنن أبي داود).

ولا يقتصر التطرف الفكري على جوانب التشديد وحدها ، بل إنه ليشمل أيضا كل ألوان التفريط والتسيب والانحلال ، وبخاصة تلك الأفكار الهدامة التي تتجاوز ثوابت ديننا، وتتصادم مع المصلحة الوطنية، وذلك لما تحدثه من فوضى وصراع مجتمعي.

وعلاج هذه الظاهرة يتمثل في توعية المجتمع المسلم بكافة أطيافه بخطر التطرف الفكري وضرره في الحاضر والمستقبل ، سواء أكان ذلك إفراطًا أم تفريطًا ، غلوًّ أم تقصيرًا، وذلك لا يكون إلا بأخذ العلم من منابعه الصافية ، وعلمائه المتخصصين ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) (متفق عليه).

ونؤكد أنَّ من أعان أصحاب الفكر المتطرف بنشره أو الرضا به ، أو التشجيع عليه أو تستر عليهم ، فهو شريك لهم في الإثم أمام الله (عز وجل) وأمام المجتمع كله، وقد نهى الله (تعالى) عن ذلك بقوله: {وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّة ، حتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيهِم، وهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوه ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِك عذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ) (مسند أحمد).

فحري بكل مسلم صادق محب لدينه ووطنه أن يتخذ من التوسط منهجًا يطبقه في كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته وأحواله ، مقتديًا في ذلك برسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) متجنبًا كل مظاهر التطرف الفكري والتشدد والغلو التي نهى عنها ديننا الحنيف ، والعمل على نشر سماحة الإسلام، وترسيخ أسس المواطنة الكاملة والعيش الإنساني المشترك، وتحقيق الحياة الكريمة الآمنة لكل الناس، بعيدًا عن كل ألوان التكفير والتفجير والتخريب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

كما أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال فهو أيضًا دين الأخلاق الفاضلة، فالأخلاق ركيزة من ركائز الإسلام ، لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ولا تتبدَّل بتبدل المصالحِ والأهواء، لثبوتها في القلبِ، ورسوخها في النفسِ، وهي إحدى ثمرات العبادة، فما من عبادة شرعها الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج إلا ولها أثر يظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي، بل يتعدى هذا الأثر من الفرد إلى المجتمع؛ ليتأكد بذلك أن الإسلام ليس طقوسًا جوفاء تؤدى في المسجد ولا علاقة لها بالواقع، فيخرج المصلي بعدها ليغش ويحتكر ، ويؤذي جاره، ولقد شُرعت العبادات

في جميع الأديان لترتقي بالإنسان ، وتسمو بأخلاقه، وما ذلك إلا لكون الأخلاق ميزانًا شرعيًا يهذِّب الإنسان ، ويرقى به إلى مدارج الكمال ، وفي ذلك يقول ربنا (سبحانه): {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: ٤٥].

وتأتي السنة النبوية المطهرة لتؤكد على أهمية الأخلاق في حياة الإنسان، مبينة الأجرَ العظيم لمن تخلق بالأخلاق الفاضلة، ومن ذلك قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ) (سنن الترمذي)، ولما سُئِلَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ أَكْثَرِ مَا يدخل الناس الجنة، قَالَ: (تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ) (سنن الترمذي)، ثم جعل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مكارم الأخلاق من أسباب محبته والقرب منه يوم القيامة، فقال: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا) (سنن الترمذي)، بل إنِّ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أولاها عناية فائقة، حيث بيَّن (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن الغاية الأولى من بعثته ورسالته إنما هي إتمام مكارم الأخلاق، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) (سنن البيهقي)، فمع أهمية أركان الإسلام جميعًا، لم يقل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): بعثت لأعلم الناس الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج، إنما جعل الأخلاق الهدف والغاية الأسمى لرسالته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مثلًا أعلى في حسن الخلق؛ لذا

امتدح ربنا هذا الجانب في النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] ، وهذا ما أكدته أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ (رضي الله عنها) حين سئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) (مسند أحمد)، فما شاع بين الناس بأن الأمم الأخلاق ، ليس مجرد شعار ، إنما هو واقع عملي يتجسد على الأرض ، فالأمم التي لا تُبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها ، ولله در القائل:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

فبالأخلاق تحيا الأمم وتبقى آثارها خالدة، وبزوالها وانهيارها تنهار الأمم وتسقط، فكم من حضارات انهارت ، لا بسبب اقتصادها ، أو قوتها العسكرية فحسب ، وإنما بتردي أخلاقها ، وهي كذلك صمام أمان المجتمعات تعصمها من الانحلال، وتصونها من الفوضى والضياع، فسلامة الأمة وقوة بنيانها مرتبط، بتمسكها بالأخلاق الفاضلة، كما أنَّ شيوع الانحلال والرذيلة يأتي نتيجة لنبذ الأخلاق والأفعال الحميدة.

ولا ريب أنَّ من أخطر ما يهدد أمن المجتمع وسلامته هو الانفلات القيمي والأخلاقي الذي يعني التخلي والتجرد من كل قول أو فعل كريم ، أو التهاون في ثوابت الدين وعادات وتقاليد المجتمع الأصيلة التي تدعو إلى الأدب والرقي والتحضر، حتى لا يصل المجتمع إلى فساد وإفساد يهدم ثوابت المجتمع، كما أن الانفلات القيمي والأخلاقي يعد مؤشرًا على

وجود خلل في المجتمع، ينبغي تداركه والتصدي له قبل فوات الأوان، فسقوط الأخلاق انهيار للمجتمع كله.

لذا يتوجب على الجميع أن يقوم بواجبه نحو مواجهة الانفلات القيمي والأخلاقي بدءًا بالأسرة ، وانتهاءً بالمجتمع ومؤسساته ، فلكل منا دوره المنوط به ولا بد من القيام به على أكمل وجه، قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥].

إن الانحراف السلوكي والانفلات القيمي والأخلاقي والدخول في مرحلة المجاهرة بالفسق والفجور جريمة نكراء لا تقل جرمًا عن مخاطر العنف والتطرف الفكري والإرهاب، فكلا الأمرين: مُدَمِّر للشعوب والمجتمعات ومُهْلك للأمم.

لذا اتفقت الشرائع السماوية على أصول الأخلاق وثوابت القيم التي ذكرها القرآن الكريم في قول الله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ*وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ

بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ١٥٢] ، ويقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠] ، فالأديان كلها قائمة على مكارم الأخلاق من الصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، والنظافة، والنظام واحترام آدمية الإنسان ، لا يشذّ عنها إلى أضدادها ونقائضها من الكذب والخيانة والغدر وسوء الخلق ، إلا شخص بعيد كل البعد عن معاني الأديان والإنسانية السوية.

* * *

خطورة النفاق وعلاماته

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: ٦٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا وحبيبنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ،

وبعد :

فمما لا شك فيه أن النفاق داءٌ عضالٌ، ووباء قتَّال، مهلكٌ للأفراد والأمم، فهو من أخطر الأمراض القلبية التي تعصف بحقيقة الإيمان، وتنقض أسسه، وتهدم أركانه، وهو آفة اجتماعية وخلقية خطيرة تهدد أمن المجتمع وسلامته واستقراره ؛ لذا فإن خطره أشد من خطر الكفر والشرك؛ لأنه داء إذا دب في جسد الأمة نخر عظامها، وفرق كلمتها.

وحقيقة النفاق: أن يُظهر الإنسان خلاف ما يُبطن، فقد يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر، وقد يظهر المودة ويُبطن الكراهية ، وقد يُظهر الفرح والحب ويُبطن الحقد والحسد ، أو يُظهر الخير ويُبطن الشر إلى غير ذلك من صور النفاق المعروفة للناس.

ولقد فضح الله (عز وجل) المنافقين ، وكشف أمرهم، وأظهر مكرهم و كيدهم فيما يقرب من ثلاثمائة وأربعين موضعًا في القرآن الكريم ، إضافة

إلى تسمية سورة كاملة باسمهم إظهارًا لأوصافهم ، وبيانًا لعظيم خطرهم ، وهي سورة (المنافقون) ، والتي يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [المنافقون: ١، ٢].

على أنه ينبغي أن نعلم أن النفاق نوعان: أكبر، وأصغر، النوع الأول: النفاق الأكبر وهو أخطر النوعين، وهو النفاق الاعتقادي الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر، وهذا النوع، يُخلد صاحبه في النار، بل يجعله في الدرك الأسفل منها ، والنوع الثاني: النفاق الأصغر: وهو النفاق العملي ، وهو انحراف في السلوك ، والتلبس بشيء من علامات المنافقين ، وذلك بأن يظهر الإنسان الصلاح ويبطن ما يخالف ذلك ، وهذا النوع لا يخرج من الدين بالكلية ؛ إلا أنه طريق إلى النفاق الأكبر ، إن لم يتب منه صاحبه .

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم، وما صح عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في بيان حال المنافقين ، ووصف أفعالهم يتضح له جليًا تلك العلامات والأمارات التي تُعرف بها هذه الفئة من الناس، ومن أهم هذه العلامات التي يُعرف بها المنافقون :

* الكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة: وهي من أقبح صفات المنافقين التي وصفهم بها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهي من النفاق العملي الذي بينه النبي (صلى الله عليه وسلم)، حيث

قال: {آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ}(متفق عليه)، وفي رواية: {وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ}(متفق عليه)، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال، أو خصلة واحدة منها كان منافقًا، وهذه الصفات تعبث بمصالح الأمة، وتهدف إلى هدمها .

وأول هذه العلامات الكذب: فكثيرًا ما نرى المنافق يكذب ليوهم الغير بصدق قوله وفعله، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: ٢٠٤] ، فإذا ذُكر النفاق والخداع وخيانة الأمانة في القرآن الكريم ذُكر معه الكذب، قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: ٩، ١٠] ، وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الكذب مبينًا آثاره قائلًا : (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (متفق عليه)، وسئل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: (لَا) (مالك في الموطأ، والبيهقي في شعب الإيمان). ووصف أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الكذب بالخيانة ، في قوله: (الصّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ...).

وأما خلف الوعد وخيانة الأمانة فيترتب عليهما قطع لأواصر المحبة ، وتباغضٍ يفضي إلى النزاع والشقاق ، وفساد في المعاملات ، وبيّن النبي

(صلى الله عليه وسلم) أن خيانة الأمانة تكون على صاحبها يوم القيامة خزيًا وندامة ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ) (متفق عليه)، ويكون (صلى الله عليه وسلم) خصيمه يوم القيامة ، فقال: (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ) (البخاري)، والفجور في الخصومة صفة ذميمة حذر الإسلام منها ، فهي جماع كل شر ، وأصل كل ذم ، وطريق للميل عن الحق ، فيجعل الحق باطلًا ، والباطل حقًا ، وقد سمى الله (عز وجل) الفجور في الخصومة لدًا ، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: ٢٠٤] ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ) (متفق عليه).

فأهل النفاق أقرب وصفٍ لحالهم أنهم ذوو الوجهين، بل نراهم في زماننا قد تجاوزوا حدود ذلك بكثير، فصار لهم ألف وجه ووجه، وهم شرار الخلق، قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ) (متفق عليه).

ومن أمارات النفاق :

* **الإفساد في الأرض وادعاء الإصلاح:** قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١١، ١٢] ، وللإفساد صورٌ متعددة ، منها : الإرجاف في البلاد ، وبث الوهن في نفوس المؤمنين الصادقين ، ودسُّ الأفكار المنحرفة ، والمفاهيم الخاطئة ، ونشر الفتنة بين الناس ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة: ٤٧] ، ويقول سبحانه: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة:٨١] ، ويقول سبحانه: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: ١٨] ، ومن صور الفساد : بخس الناس حقهم ، والتقليل من شأنهم، قال تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [هود: ٨٥] ، [الشعراء: ١٨٣] ، ومن صوره: الهدم والتخريب، وقتل الأبرياء، وترويع الآمنين، وتعطيل مصالح الناس، وعدم القيام بالمسئولية، وكذلك الرشوة، والمحسوبية، وأكل أموال الناس بالباطل .

* ومن علامات النفاق أيضًا الكسل عن أداء العبادة، والرياء عند فعلها ، وخاصة في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهي الصلاة ، قال تعالى : {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}، [التوبة: ٥٤] وقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى المُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا)، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ : (يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ) (صحيح ابن خزيمة).

* ومن علامات النفاق: التحالف مع الأعداء والتواصل معهم على حساب الدين والوطن، بالتجسس ، ونقل الأخبار والمعلومات، والإفصاح عن أسرار الوطن، فالمنافق عميل يوالي أعداء وطنه على حساب أهله وجيرانه وأقربائه ، يقول الحق سبحانه: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: ٥٢] ، ويقول سبحانه: {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}[النساء: ٧٢، ٧٣] ، فالمنافق يفرح إذا ألمّ بالوطن وأبنائه شرّ ، أو انتشرت فيهم فتنة ، أو تفشى فيهم مرض، أو أصابهم انكسار ، قال تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ

تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠].

هذه بعض علامات النفاق التي ذكرها لنا القرآن الكريم ، وبينها النبي الأمين (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تنديدًا بهم، وتحذيرًا من مكرهم.

ويكفي بالنفاق شرًّا وشؤمًا على صاحبه أنه محبطٌ لعمله ، مهما بدا هذا العمل في أعين الناس عظيمًا ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: بل أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. وَيُؤْتِي بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ". ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى رُكْبَتَيَّ، فَقَالَ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ!

أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الترمذي والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة في صحيحه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

تأتي أهمية الحديث عن النفاق في هذا الوقت لبيان أن علامات النفاق من الكذب، والخيانة والغدر، ونقض العهود والمواثيق، وتأليب الرأي العام، وخيانة الدين، إنما هي صفات المنافقين قديمًا وحديثًا ، غير أن المنافقين الجدد قد ضموا إلى ذلك ضروبًا جديدة من الخداع، أبرزها لبس مسوح الدين، والمتاجرة به، واستغلاله لتحقيق مصالح الجماعات التي تريد أن تتخذ من الدين مطية إلى السلطة ، متدثرة في ألوان شتى من التدين الشكلي والتدين السياسي، فينسبون الإيمان لأنفسهم وينفونه عن غيرهم، سعيًا منهم لتوفير الغِطاء الشَّرعي لأعمالِهم ، إضافة إلى ما يتسم به المنافقون الجدد من خيانة الوطن وتحقيره وبيعه بثمن بخس.

لقد توعد الله (عز وجل) هذا الصنف من الناس بأن الدائرة عليهم ، وأن غضب الله يحيق بهم في الدنيا والآخرة، وأن ما يخططون له من إيقاع المسلمين في الشدة والعنت سيعود عليهم، قال تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣] ، وعاقب الله (عز وجل) أصحاب النفاق

الأكبر بالتردد وعدم الاستقرار ، والهلع والفزع عند كل أمر ، قال تعالى : {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}، وقال سبحانه: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤] ، وصرف الله (عز وجل) قلوبهم عن الفهم عن الله تعالى، وعن رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير ، قال تعالى: {ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} [المنافقون: ٣] ، وأما عن عقابهم في الآخرة فقال الله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١] ، فالعذاب الأول في الدنيا، والعذاب الثاني في القبر ، أما العذاب الأكبر ففي الآخرة ، حيث يجمع الله المنافقين مع من كانوا على شاكلتهم من خصال الشر في النار، قال الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠] ، ويقول سبحانه: {إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

*   *   *

خطورة الشائعات

الحمد لله ربّ العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠ـ ٧١]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن الصراع بين الحق والباطل صراع قديم قِدمَ البشرية ، وهو مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإن من أبرز وسائل أهلِ الباطل في صراعهم مع أهل الحق صناعة الشائعات ، وترويجها بين الناس ، ولقد أخذت هذه الصناعة أشكالًا مختلفة وصورًا متنوعة ، في ظل ما يشهده العالم من تطور كبير في وسائل التواصل، وتكنولوجيا المعلومات ، حتى أصبحت الشائعات أكثر رواجًا ، وأسرع وصولًا ، وأبلغ تأثيرًا .

ومما لا شك فيه أن الكلمة أمانة ومسئولية عظيمة ، سواء أكانت مقروءة، أم مسموعة ، أم مرئية ، والشائعات ما هي إلا كلمة تنتشر بين الناس، يطلقها صاحبُ قلب مريض ، أو هيئة أو منظمة من قوى الشر التي تعمل في الخفاء ، وتتناقلها الألسنة وترددها دون تثبت ، أو تبيّن ، فتؤثر سلبًا على العقول والنفوس ، وتنشر الأفكار الهدامة والمعتقدات الفاسدة ،

ويصبح المجتمع ويمسي في قلق وريبة ، بل ويذهب الأمن ، وتضعف الثقة بين الناس ، فترى أمة الجسد الواحد يشكك بعضها في بعض، ويخوّن بعضها بعضًا؛ لذا قال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) (صحيح مسلم)، فإذا كان التحدث بكل ما يسمعه الإنسان نوعًا من أنواع الكذب يُعاقَب عليه الإنسانُ عقوبة شديدة في الآخرة ، فكيف بمَنْ يتحدث بما لم يره أو يسمعه؟ .

لقد اتخذ الإسلام موقفًا حازمًا من الشائعات ومروجيها ، وعدّها سلوكًا منافيًا للأخلاق الحسنة ، والقيم النبيلة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، وذلك حين أمر أتباعه بحفظ اللسان عن الخوض في ما ينشر الفتنة ويثير الاضطرابات في المجتمع ، وأمرهم بالصدق في أقوالهم ، وحفظ ألسنتهم ، والتثبت من كل ما يصل إلى أسماعهم حتى لا يكونوا سببًا في نشر الفتن ، وإفساد المجتمع ، وتشويه الأعراض ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٩] ، وقال جلّ شأنه: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]. ، وقال سبحانه: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء : ٣٦] ، وفي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) بعد أن بيَّنَ له النبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فرائضَ الإسلام ، وأبوابَ الخير، قال له: (وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ) ، قَالَ معاذ : أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ ، وَأَمَّا عَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ ، وَأَمَّا ذِرْوَةُ سَنَامِهِ فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ

كُلِّهِ) ، فقَالَ: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (فَأَهْوَى بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ) ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَنُؤَاخَذُ بِمَا نَقُولُ بِأَلْسِنَتِنَا؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، هَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟) (سنن الترمذي).

إن نشر الشائعات وترويجها هو سلوك المنافقين في الوصول إلى مآربهم وأهدافهم بزعزعة الأمن ، واستهداف وحدة الوطن ، وإضعاف نمو اقتصاده، والنيل من استقراره وسلامته ، وبث روح الإحباط واليأس والتشاؤم في نفوس المواطنين عمومًا والشباب على وجه الخصوص ، ولقد سماهم القرآنُ الكريمُ المرجفينَ ؛ لأن الإرجاف يقصد به الخوض في الأخبار السيئة والفتن التي من شأنها أن تُحدث الاضطراب الشديد في المجتمع ، قال تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب:٦٠] .

والشائعات إحدى وسائل الحروب التي لم يسلم منها النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فقد حارب المشركون النبيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بترويج الشائعات للنيل من دعوته وتشويه صورته ، فأشاعوا بين الناس كذبًا أنه (صلى الله عليه وسلم) ساحر ، قال تعالى: {وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص:٤]، وادّعوا بهتانًا أنه شاعر ومجنون ، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}،[الصافات: ٣٦] وتارة أشاعوا أنه كاهن، فرد الله تعالى عليهم كذبهم وافتراءهم ، قائلًا : {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ

*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الحاقة:٤١ـ ٤٣] .

وفي غزوة أُحد أشاع المشركون مقتل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رغبةً منهم في تفريق المسلمين من حوله ، وإضعاف قوتهم ، فاضطربت صفوف المسلمين وضعفت قواهم النفسية ، وفرَّ بعضهم ، وألقى بعضهم السلاح ، وثبُت بعضهم مع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

وفي غزوة حمراء الأسد أشاع المشركون أن قريشًا قد جهزت جيشًا كبيرًا لمهاجمة المدينة ، ومحاربة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، والقضاء على الإسلام ، إلا أن المسلمين ثبتوا على دينهم ، ولم تنل منهم تلك الشائعات ، فأثنى الله تعالى عليهم بقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤].

وقد عمد أعداء الإسلام إلى إثارة الشائعات بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، فتولى اليهود كِبر التشكيك في صحة التوجه إلى البيت الحرام ، وقالوا : إن كانت القبلة الأولى هي الحق فقد تركتم أيها المسلمون الحق ، وإن كانت القبلة الأولى هي الباطل فعبادتكم السابقة باطلة ، ولو كان محمد (صلّى الله عليه وسلّم) نبيا حقا ما ترك قبلة الأنبياء قبله وتحوّل إلى غيرها ، وما فعل اليوم شيئا وخالفه غدًا.

وقال المنافقون: ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟ ، وقال المشركون: إن محمدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد تحيّر في دينه ، ويوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم ، وأحبط مكرهم ، فأخبر الله تعالى نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعًا قبل أن يصدر عنهم، ومهّد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان في القلوب والأفئدة لتقبّل هذا الأمر العظيم.

إن في ترديد الشائعات وترويجها من الخطورة ما لا يخفى على العقلاء من استباحة الدماء والأموال والأعراض واضطراب الحياة ، ولنا في مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) خير دليل وشاهد على ذلك، فقد حاصره المجرمون بسبب الشائعات والأراجيف التي أطلقها عبد الله بن سبأ اليهودي، بل ومنعوه من شرب الماء وهو الذي اشترى بئر رومة من خالص ماله، فعن نائلة زوج عثمان (رضي الله عنه) قالت: لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان ، ظل في اليوم الذي قبله صائمًا ، فلما كان عند إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيت جارات لي ، فسألتهم الماء العذب ، فأعطوني كوزًا من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت: هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر، فقال: إني قد أصبحت صائمًا ، وإنّ رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اطلع عليّ من هذا السقف ومعه ماء عذب ، فقال: (اشْرَبْ يَا عُثْمَانُ)، فشربت حتى رويت ، ثم قال: (ازْدَدْ) ، فشربت حتى نهلت، ثُمَّ قَالَ: (أَمَا إِنَّ

الْقَوْمَ سَيَكْثُرُونَ عَلَيْكَ، فَإِنْ قَاتَلْتَهُمْ ظَفِرْتَ، وَإِنْ تَرَكْتَهُمْ أَفْطَرْتَ عِنْدَنَا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ يوْمِهِ فَقَتَلُوهُ) (مسند البزار).

ومن الآثار الخطيرة للشائعات : الخوض في الأعراض ، بما يؤدي إلى قطع أواصر الود والمحبة والترابط بين أفراد المجتمع ، بل ويقضي على الألفة والتراحم بين الأهل والأقارب، ويدمِّر الحياة الزوجية ، ويفكك الأسر، والحق تبارك وتعالى يقول : {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور: ٢٣] ، ونبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول : (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ) (سنن أبي داود) . فليحذر كل واحد منّا أن يخوض فيما ليس له به علم ، مستهينًا بالكلمة وخطورتها ، والله تعالى يقول : {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يوم الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

لقد وضع الإسلام منهجًا حكيمًا لوقاية المجتمع من الشائعات ، من أهم ملامحه :

* **وجوب التثبت من الأخبار** والتأني قبل نشرها في المجتمع ، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات:٦]، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ) (مسند إسحاق بن راهويه) ، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ) (سنن أبي داود) .

* **عدم ترديد الشائعة، أو الخوض فيها** ؛ لأن في ترديدها إسهام في ترويجها ونشرها ، فالشائعات تزداد انتشارًا إذا وُجِدَتْ ألسنة ترددها ، وآذان تصغي إليها ، ونفوس تتقبلها وتصدقها ، قال تعالى: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) (صحيح البخاري).

***حسن الظن بالآخرين، وعدم التسرع في اتهامهم**، قال تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا

هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: ١٢]، فالمسلم مأمور بأن يحسن الظن ، وأن يحمل ما يصدر عن الآخرين على محمل حسن ؛ لأن سوء الظن مرض فتاك يؤدي إلى اضطراب الحياة ، ونشر الخصومة بين الناس ، ولقد حذر النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من ذلك بقوله: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) (متفق عليه).

* **الاستعانة بأهل الخبرة والاختصاص في بيان الحقائق**، وعدم التعجل في الحكم على الأمور ، قال تعالى في وصف المنافقين : {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ٨٣] ، أي : إنهم كانوا يتربصون بأمن واستقرار مجتمع المدينة ، فإذا ما سمعوا شيئًا من الأخبار التي تتعلق بأمن المسلمين أو خوفهم أذاعوها ،أو أظهروها بقصد إشاعة الفزع والقلق والاضطراب .

فلينتفض كل مؤمن غيور على دينه ، مخلص لوطنه للتصدي لتلك الشائعات ، وتكذيبها ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (سنن الترمذي)، ولنعلم أن الكلمة أمانة سنُسأل عنها أمام الله تعالى يوم القيامة .

ولندرك جميعًا أن أعداءنا قد اتخذوا من حروب الجيل الرابع والجيل الخامس ، ومن حرب الشائعات وتشويه الإنجازات والرموز الوطنية،

ومحاولات النيل من كل ما هو وطني سبيلًا لإفشال دولنا ، أو إسقاطها ، أو تفتيتها ؛ لتحقيق أغراضهم ومآربهم ، فعلينا أن ندرك أننا أمام حرب ضروس تُحاك لنا ، والشائعات وقودها ، فيجب أن نتحقق وأن نتثبت حتى لا نسقط في مكائد أعدائنا ، ويجب أن نثق في أنفسنا وفي قيادتنا وفي جيشنا وشرطتنا ، وألا نعطي أسماعنا لأعداء الوطن ، ومن يعملون على النيل منا ، أو من معنوياتنا ، أو يفكرون في إحباطنا وبث روح اليأس بيننا ، مؤكدين أن ثقتنا في الله (عز وجل) وفي أنفسنا كفيلة بردِّ كيد أعدائنا في نحورهم بإذن الله تعالى .

* * *

حرمة الكذب والافتراء والإفساد وإشاعة الفوضى

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد ميز الله (عز وجل) الأمة الإسلامية بأن جعلها أمة قيم سامية ، وأخلاق كريمة ، وارتضى لهم من الأفعال والأقوال معاليها ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ) (مسند البزار).

وإن من أهم المقومات التي تبنى عليها الدول الراقية المتحضرة القيم الأخلاقية والسلوكية والإنسانية والحضارية ؛ لأن الأمم التي لا تبنى على الأخلاق أمم هشة ، وحضارتها أكثر هشاشة ، بل إنها لتحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها ، وعوامل قيامها ، ولله در الشاعر حيث قال:

إنما الأمــم الأخــلاق مــا بقيــت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وديننا الحنيف ما ترك قيمة من القيم الإنسانية الراقية ، ولا خلقا من الأخلاق الكريمة إلا دعا إليه ، ولا ترك سلوكا سيئا، ولا خلقا غير كريم إلا وحذر منه، وإن من الأمور التي حذر منها ديننا الحنيف، ونهى عن فعلها، وجعلها من الأمور المحرمة: الكذب والافتراء والإفساد وإشاعة الفوضى؛

لما لذلك كله من آثار سلبية على الفرد والمجتمع، فهي أمراض اجتماعية وآفات خطيرة تهدد كيان الأمم وتزعزع استقرارها.

فالكذب نقيصة من النقائص التي لا تليق بالإنسان الكريم، وسلوك مذموم حذر منه القرآن العظيم ، لسوء عواقبه وخبث نتائجه ، فهو جماع كل شرٍّ، وأصل كل ذمٍّ، فإن الذين يكذبون على الله (عز وجل) من أجل تبرير مصالحهم وتصرفاتهم، يسلكون مسلكا خطيرًا يؤدي إلى العبث بدين الله (عز وجل) وبمصالح الأمة، ويبعث على الفرقة والشتات في صفوفها، لذا حذرنا ربنا سبحانه من هذا المسلك، وتوعد الله (عز وجل) صاحبه بالعقاب الشديد والعذاب الأليم في الآخرة ، حيث قال: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل: ١١٦،١١٧] ، وكذلك أخبر نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن عقوبة الكذب مبينا أنه يقود صاحبه إلى النار والعياذ بالله ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُل لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُل لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (متفق عليه).

على أن الكذب أمارة من أمارات النفاق، وعلامة من علاماته، فإذا ذكر النفاق في القرآن ذكر معه الكذب ، وإذا ذكر الكذب ذكر معه النفاق ، قال تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: ١]. ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (متفق عليه)، وفي رواية: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (متفق عليه)، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، ومن كانت فيه واحدة منها صار فيه خصلة من النفاق.

فالكذب عنوان النفاق، إضافة إلى أن وجوده في الشخص دليل على ضعف الإيمان، لذلك قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلاَلِ كُلِّهَا إِلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) (مسند أحمد)، ولقد نفى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن المؤمن أن يكون كذابا، حين سئل: (أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟) فَقَالَ : (نَعَمْ ؟)، فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ) ، فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا ؟ فَقَالَ : (لاَ) (شعب الإيمان) .

وقد رتَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) على ترك الكذب والبعد عنه ثوابا عظيما، حيث قال: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ) (سنن أبى داود) .

وإذا كان الكذب نقيصة وجريمة، فإن الافتراء على الأبرياء واختلاق الأحداث الكاذبة التي ربما يستهين البعض بنشرها وترويجها أشد جرما

وأعظم نكرانا؛ لأن رمي الناس بما لم يعملوا، وبهتانهم بما لم يفعلوا، عاقبته وخيمة ، وآثاره أليمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} [الأحزاب: ٥٨] ، وقال (عز وجل): {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيم} [النور: ١٥].

ولا شك أن الشائعات التي لا أصل لها هي كذب متعمد ، وافتراء على الله ، وعلى خلقه ، تهدف إلى الهدم والإفساد ، {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥].

ولقد كانت ولا زالت الشائعات المغرضة ، والأخبار الكاذبة على مرِّ التاريخ من أقوى الأسلحة التي تعمل على التدمير المعنوي والمادي للأفراد والمجتمعات ، وهي صورة من صور الافتراء الذي يهدف إلى الفتنة وانعدام الثقة بين الناس ، وبث الوهن في نفوس الآملين ، وتثبيط المصلحين الصادقين ، وقد عدّ الإسلام ذلك سلوكًا منافيًا للأخلاق الكريمة والمثل العليا التي جاء بها ديننا الحنيف ، من المحبة والمودّة والإخاء ، والتراحم والتعاطف والتعاون ، أما الشائعة التي تحمل الكذب والافتراء فما هي إلا نسف لتلك القيم ، وأداة هدم لهذه المثُل ، بسببها تكثر العداوات بين الناس ، وتسفك الدماء وتنتهك الأعراض ، وتشتعل الحروب ، وبسببها يذهب الأمن وتتفكّك روابط المجتمع .

لذلك وقف الإسلام منها موقفًا حاسمًا ، فحذر منها وبين آثارها ، وأمر بحفظ اللسان، ونهى عن الكذب ، وقول الزور والبهتان، وأمر بالتثبت من الأقوال والأخبار ، حتى لا ننساق خلف من يردد الشائعة ويروج لها، ونرددها دون وعي فنكون شركاء في الإثم والذنب دون أن ندري .

على أن هؤلاء الذين يروجون الشائعات بين أوساط المجتمع بقصد إثارة الفتن ونشر الفوضى إنما يتحالفون مع أعداء الدين والوطن لإيقاف مسيرة البناء والعطاء ، أو تعطيلها وتشكيك الناس فيها ، ولن يكون لهم ذلك أبدا بإذن الله تعالى ، وفي أمثال هؤلاء يقول ربنا (عز وجل) : {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: ١٨] ، ويقول تعالى: {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا} [النساء: ٧٢].

وعلينا أن ندرك أن خطورة الشائعات والافتراءات لا تقتصر على الفرد فحسب ، بل إن أثرها وخطرها يمتدان إلى المجتمع كله ، فبسببها تدمر العلاقات بين أفراد المجتمع ، وبسببها تفتعل الأزمات ، وتتعطل المصالح وتفسد الحياة.

فالشائعات من أهم الوسائل المؤدية إلى الفتنة والوقيعة بين الناس ، ومن ثم حرمها الإسلام فقال سبحانه : {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [النور: ١٩] ، وقد أمرنا ديننا بالتروي والتثبت ، فقال الحق سبحانه: {يَاأَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين ، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إذا كان الله (عز وجل) قد أمرنا بإعمار الأرض وإصلاحها ، فقال سبحانه: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] ، فإنه (سبحانه وتعالى) حذّرنا من السعي فيها بالفساد والإفساد، حيث قال: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦] ، فكل ما من شأنه أن يحدث فسادًا، أو اعتداءً ، أو تخريبًا وتدميرًا ، أو ترويعًا للآمنين، يُعَدُّ إفسادًا في الأرض .

ولقد جاءت رسالات السماء كلها داعيةً إلى الإصلاح، ومحذرةً من الفساد والتخريب، قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦] ، وقال سبحانه على لسان نبيه صالح (عليه السلام) لقومه : {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ

يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٢]، وقال تعالى أيضًا: {فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٧٤].

إنه إصلاح لا يريد من خلاله تحصيل مصالح ومآرب شخصية ، ولا ينطلق من بواعث ونوازع نفسية، أو من صراع شخصي، إنما هو إصلاح يعود بالنفع العام على سائر أفراد المجتمع.

وعندما استخلف موسى (عليه السلام) أخاه هارون (عليه السلام) في قومه أوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين، قال تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢] .

والمتدبر في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ودعوته يرى أنها كانت امتدادا لدعوة الأنبياء السابقين قبله واستكمالا للإصلاح في جميع مناحي الحياة دينيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، فقد بنى (صلى الله عليه وسلم) حضارة إسلامية مرتبطة بالقيم والأخلاق ، بعد أن كان المجتمع ملوثًا بمفاسد أخلاقية ، فكانت دعوته (صلى الله عليه وسلم) هي دعوة حياة وإصلاح للفرد والمجتمع ، قال تعالى : {ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤].

أما التخريب والاعتداء على الأنفس وترويع الآمنين ونشر الفوضى ما هو إلا إفساد في الأرض ، وتخريب للمجتمعات ، وهؤلاء الذين يريدون

تخريب الأوطان والاعتداء على الآمنين ، هم فئة ضالة منحرفة ضلت الطريق ، وانسلخت من كل معاني المروءة والإنسانية ، إلى الاعتداء والتخريب والتدمير والتفجير ، وتعريض حياة الناس للخطر ، هؤلاء لا علاقة لهم بالإسلام ، ولا بالأديان ، ولا بالإنسانية ؛ فهم يلبسون الباطل ثوب الحق، ويظهرون في صورة المصلحين ، لكن الله (عز وجل) كشف أمرهم بقوله تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: ٢٠٥-٢٠٧] ، وهو سبحانه وتعالى يعلم حالهم ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى : {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة: ٢٢٠].

وفي الختام نؤكد أن الأديان كلها قائمة على البناء والتعمير ، وفن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، وحب الخير للناس ، لا إلحاق الأذى بهم ، وأن عواقب الكذب والافتراء والخيانة للدين والوطن والعمالة لأعدائهما ذُل ومهانة في الدنيا ، وخزي وحسرة وندامة يوم القيامة ، قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران: ٣٠].

وهو ما يتطلب من كل الوطنيين الشرفاء الغيورين على دينهم ووطنهم وعرضهم وكرامتهم أن يقفوا صفًا واحدًا في وجه دعاة الفوضى ، وألا نسمح

مجتمعين لأحد أو ثُلّة منحرفة أن تحاول - مجرد محاولة - جرنا إلى الفوضى التي عصفت بكثير من الدول ، فوقعت ولم تقم ، ودخلت في أتون الفوضى فلم تخرج منها ، وأن نتعامل بكل حسم مع هذه الظواهر السلبية ، وأن نكون جميعًا عيونًا ساهرةً على أمن هذا الوطن وأمانه متعاونين في الوفاء بحقه العظيم علينا جميعًا .

*   *   *

مخاطر الإدمان والمخدرات

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فمما لا شك فيه أن بناء الأوطان ، وإعلاء كلمتها ، والدفاع عنها ، ودعم صمودها في مواجهة الإرهاب وكافة التحديات يحتاج إلى تكاتف جميع أبنائها خاصة الشباب منهم ، فهم سواعد البناء ، وموضع العطاء ، وأمل المستقبل، وقد فطن أعداء الدين والوطن لهذا ، فسعوا إلى غزو مجتمعاتنا بسلاح المخدرات والمسكرات ، وعملوا على تغييب عقول الشباب ، وإضعاف قوتهم ، وتوهين عزيمتهم .

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية بإباحة كل طيب ، وتحريم كل خبيث، قال تعالى مبينًا مهام نبيّه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧] ، ومن المعلوم أن الخمر أم الخبائث ، ومفتاح كل شرٍّ ؛ لأن الإنسان إذا شرب الخمر سكر، وإذا سكر هذي، فربما قتل، أو سرق، أو ارتكب الحماقات. فَشُرْبُ المسكراتِ، وتناول المخدرات فعل تأباه الفطر السليمة، والعقول السوية؛ لذا فإن بعض العرب

في جاهليتهم أنِفوا أن يشربوها ، وهجروها ، ورأوها مُذهبةً للعقل ، مُسلبة للمال ، مُسقطة للمروءة ، فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) قد حرّم الخمر على نفسه، فلم يشربها في الجاهليّة، وذلك أنّه مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة ويدنيها من فيه فإذا وجد ريحها صرف عنها ، فقال أبو بكر (رضي الله عنه): "إنّ هذا لا يدري ما يصنع، فحرّمها أبو بكر على نفسه"، وفي الأثر : سُئل أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في مجمع من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم): هل شربت خمرًا في الجاهلية ؟ قال: "أعوذ بالله" ، قالوا: ولم ذاك؟ فقال: "كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي، لأنه من شرب الخمر كان لعرضه ومروءته مضيعًا"، فبلغ ذلك رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: (صدق أبوبكر، صدق أبوبكر) (معرفة الصحابة لأبي نعيم).

وعن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال: "اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ ، إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ يَتَعَبَّدُ ، وَيَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَاوِيَةٌ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْهِدَكَ بِشَهَادَةٍ ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا فَجَعَلَ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ ، وَعِنْدَهَا إناء فيه خَمْرٌ" فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لِشَهَادَةٍ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ لِتَشْرَبَ مِنْ هَذَا الْخَمْرَ كَأْسًا أَوْ لِتَقْتُلَ هَذَا الْغُلَامَ ، وَإِلَّا صِحْتُ بِكَ ، وَفَضَحْتُكَ فَلَمَّا أَنْ رَأَى أَنْ لَيْسَ بُدٌّ مِنْ بَعْضِ مَا قَالَتْ ، قَالَ: "اسْقِينِي مَنْ هَذَا الْخَمْرَ كَأْسًا فَسَقَتْهُ" فَقَالَ:" زِيدِينِي كَأْسًا فَشَرِبَ فَسَكِرَ ، فَقَتَلَ الْغُلَامَ وَوَقَعَ عَلَى الْمَرْأَةِ ، فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَوَ اللَّهِ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ فِي قَلْبِ رَجُلٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرِجَ صَاحِبَهُ" (سنن النسائي). وكان

الحسن البصري (رحمه الله) يقول : "لو كان العقل يُشترى لتغالى النّاس في ثمنه ، فالعجب ممّن يشتري بماله ما يفسده" (ابن أبي الدنيا في ذم المسكر) .

وحفاظًا على نعمة العقل الذي هو من أجلِّ نعم الله تعالى على العبد ، فقد شدد الإسلام في النهي عن شرب الخمر ، أو حتى مجرد الاقتراب من مجالسها ، فقال الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٩٠] ، وقال نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ) (سنن الترمذي) ، وتشديدًا في النكير على كل من اقترب من الخمر متعاطيًا ، أو بائعًا ، أو صانعًا ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ) (سنن أبي داود) .

ولقد كان النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا بايع أصحابه (رضوان الله عليهم) قال: (أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَشْرَبُوا مسكرًا ، فَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَأُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّهُ فَهُوَ كَفَّارَةٌ ، وَمَنْ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ضَمِنْتُ لَهُ الْجَنَّةَ) ، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (وَلَا تَشْرَبُوا مسكرًا) بصيغة العموم يشمل جميع المسكرات ، دون النظر إلى مسمياتها ، وفي حديث آخر قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :

(كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتُبْ ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ) (صحيح مسلم) ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا) (سنن أبي داود) ، فالعبرة ليست بالأسماء ، وليست كذلك بكثرة أو قلة المشروب ، وإنما العبرة في الحكم بحصول الإسكار ، وقد قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ) (سنن الترمذي)، على أن الأمر لا يُقاس على من فسدت طبيعتهم من كثرة السكر ، إنما يقاس بأصحاب النفوس الصافية التي لم تُلوث بالتعاطي أو الإدمان .

إن الإدمان والمخدرات سم قاتل ، يفتك بمن يقع في شَرَكِه من أفراد المجتمع ، فيضعف من قواهم البدنية والفكرية والاقتصادية ، ويجعل عقولهم خاوية ، وقلوبهم فارغة ، إلى غير ذلك من مخاطر وأضرار تعود على الفرد والمجتمع ، وإن من مخاطر الإدمان والمخدرات على الفرد : **أنها تصيبه بالعديد من الأمراض النفسية والبدنية القاتلة** ، فيدمر المدمن طاقته وعافيته بيده ، ويعتدي على ما وهبه خالقُه ومولاه.

ومنها : **انهيار الأسرة وتفككها** ، فالمدمن يطيع هواه ، ويلهث خلف شهواته ، ويوظف كافة أمور حياته الشخصية والعملية ليصبح قادرًا على الحصول على المخدر ، ويتنصل من كل مسئولية اجتماعية وأسرية ، فتسوء علاقته بزوجته وأولاده ووالديه ، ويسود التوتر والاضطراب ، وتذهب الطمأنينة وينتشر الخوف والرعب من جميع الوجوه ، وربما كان سببًا في وقوع العديد من حالات الطلاق وتشريد الأبناء، إضافة إلى الخجل

الاجتماعي الذي تعاني منه أسرة المدمن ، ونظرة المجتمع السلبية لهم ، الأمر الذي يهدد كيان الأسرة واستقرارها ، ومن ثم يهدد كيان المجتمع .

ومنها: **انتشار العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع** ، إذ أن المتعاطين لها تذهب عقولهم ، وتسوء تصرفاتهم ، فلا يصدر منهم إلا القبيح من الأقوال والأفعال ، مما يؤدي إلي انتشار الفرقة والخلاف والتنازع ، قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩١] .

ومنها: **الإضرار باقتصاد الدولة** ، حيث إن الدولة تقوم بإنفاق الملايين من الأموال على محاربة تجارة المخدرات ، والتوعية بأضرارها وإنشاء المصحات لعلاج المدمنين ، ومحاربة الجرائم المتعددة التي تنشأ نتيجة الإدمان وتعاطي المخدرات ، فضلًا عما قد يحدث من الأضرار الأخرى التي يعاني منها المجتمع كحوادث الطرق وغيرها ، وذلك بسبب تأثير المخدرات على الجهاز العصبي وفقدان السيطرة والتركيز ، إضافة إلى إهدار الطاقات وتفويت انتفاع المجتمع بها ، فمعظم المدمنين من الشباب، لا تستفيد منهم أوطانهم ، فشتان بين شاب يقف على حدود الوطن يحرس الأرض ، ويدافع عن العرض ، وبين شاب أضاع ماله وعقله ، وأضر بمجتمعه ووطنه .

إن خطر الإدمان والمخدرات يمتد ليسبب الانحدار في الجانب التربوي ، والتعليمي ، والأخلاقي ، والاجتماعي ، والاقتصادي مما يحتم

علينا المواجهة والتصدي لهذا الخطر الفتّاك ، وإن استهداف الشباب عن طريق الإدمان والمخدرات لهو استهداف للبلاد وإضعافٌ لعناصر قوتها ، وهدم للقيم النبيلة والأخلاق الحسنة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله ، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

كما أننا في مواجهة شاملة وحاسمة مع الإرهاب ، فإننا في حاجة ماسة ـ أيضًا ـ وعاجلة إلى مواجهة شاملة وحاسمة مع الإدمان والمخدرات، فهو إرهاب من نوع آخر لا يقل خطورة وضراوة واستهدافًا للمجتمع وشبابه عن استهداف المجتمع وشبابه بالفكر المتطرف ، فإفشال الدول أو إسقاطها أو إضعافها أو تفتيت كيانها بشتى السبل هو الغاية المرجوة لأعدائنا، فإذا وجدوا في بعض شبابنا ميلًا للتطرف والغلو عملوا على استقطابهم وتجنيدهم من خلال الجماعات المتطرفة والفكر المتطرف ، ومن وجدوا فيه ميلًا للانحلال والتسيب حاولوا اجتذابه من خلال ما يناسب طبيعته ومزاجه، بما يؤدي إلى تفسخ المجتمع وانحلاله وضياع شبابه.

فإذا أردنا القضاء على مخاطر المخدرات والإدمان فأول خطوة في سبيل تحقيق ذلك هو الوقوف على أسبابها والدوافع إليها ومعالجتها ، وإن من أسباب الوقوع في براثن الإدمان والمخدرات : **ضعف الوازع الديني**

أو غيابه بالكلية ، فلو تيقن كل إنسان أن حركاته وسكناته محسوبة عليه ، لأبصر مواضع النجاة ، واجتنب مزالق الهوى، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (متفق عليه).

ومنها: **غياب التربية الأسرية**، **وضعف رقابة الوالدين**، فعدم قيام الوالدين بدورهما التوجيهي والتربوي ، وتراجع الرقابة منهما ، أو غيابها في ظلّ تفكك أسري حقيقي أو معنوي ، يؤدي إلى وقوع ولدهما فريسة للإدمان ، ومن ثم فإن على الآباء والأمهات مسئولية ضخمة تبعاتها، خطيرة آثارها، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم : ٦].

ومنها: **الصحبة السيئة**، قال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧-٢٩] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ) (سنن أبي داود).

إنَّ ذكر هذه الأسباب ليس من باب التبرير لهذا الفعل الأثيم ، وإنما من باب التحذير وتسليط الضوء على ما يورد المهالك ، ليحذرها الجميع رجالًا ونساء ، فإن الخطر داهم ، والثمن عقول أبنائنا ، وصحتهم النفسية والبدنية ، وأموالهم وما يملكون، فعلينا جميعًا أن نعلم أن هناك قوى

خارجية تبدي لنا البغضاء ، وتتربص بمصرنا الغالية ، وأمتنا العزيزة ، تريد أن تبدد قوتنا ، وتمزق كلمتنا ، وتنكس رايتنا ، وتكسر شوكتنا ، للنيل من قوة هذا البلد ، والاستيلاء على مقدراته ، ويعينهم على ذلك نفوس مريضة داخل المجتمع تنسى الله (عز وجل) والدار الآخرة ، وتعبد المال ، وتعمل في خبث ودهاء ، وتفرط في أوطانها ، وتلوث مظاهر النقاء والصلاح في المجتمع المصري خاصة ، والإنساني عامة .

فلنحرص على رعاية أبنائنا وبناتنا ، ولنعلم أنهم أمل هذه الأمة في حاضرها ومستقبلها ، وعلى أيديهم يزدهر وطننا ، ويسعد مجتمعنا ، وتتبوأ أمتنا المكانة اللائقة بها بين الأمم .

*   *   *

أكل السحت وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد حثَّ الإسلام على أكل الحلال الطيب وتحصيله من طرق مباحة ومشروعة، ليس فيها اعتداء أو ظلم أو ضرر للآخرين ، فقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: ١٧٢] ، ويقول عز وجل : {وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} [المائدة: ٨٨].

كما نهى الإسلام عن أكل الحرام بكل صوره وأنواعه، نهيًا قاطعًا ، وشدد الوعيد على كل غافل اتبع هواه واستهان بأكل السحت ، فقال الحق سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء:٢٩ـ٣٠] وقال سبحانه : {إِنَّ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠] ، وقال جلّ شأنه : {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [المائدة: ٦٢].

ولأن المال فتنة ربما يسعى بعض الناس لجمعه من حلَّه أو من غير حلَه ؛ لذا فقد حذر النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أمته قائلًا : (إِنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً ، وَإِنَّ فِتْنَة أُمَّتِي الْمَالُ) (مسند أحمد)، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ مِنَ الْمَالِ بِحَلَالٍ، أَوْ بِحَرَامٍ) (صحيح البخاري)، وقال (صلى الله عليه وسلم) لكعب بن عجرة : (يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ ، النَّاسُ غَادِيَانِ : فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا) (مسند أحمد).

وأكل السحت له صورٌ ومجالاتٌ متعددةٌ ، منها : الرشوة ، وهي ما يُعطى لإبطال حق ، أو إحقاق باطل ، أو هي ما يؤخذ أو يعطى بغير حق للوصول إلى أمر ما ، وقد توعد النبي (صلى الله عليه وسلم) كل من اتصل بها باللعن والطرد من رحمة الله (عز وجل) ، فعَنْ ثَوْبَانَ (رضي الله عنه) أن رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : (لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ، وَالْمُرْتَشِيَ ، والرَّائِشَ) وَهُوَ الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا) (مسند أحمد) ، والرشوة سبب رئيس في اختلال مسار الحياة الإنسانية ؛ لما يترتب عليها من ضياع الحقوق ، وانتشار الظلم ، وإسناد الأمر إلى غير أهله ، والرشوة لا يتعاطاها إلا من خربت

ذممهم ، وساءت أخلاقهم، وضعف إيمانهم ، وطمست بصيرتهم ، ممن أرادوا نيل مقاصدهم مهما كانت ، ولو بطرق غير مشروعة ، فعن أبي حُمَيدٍ السَّاعِدِي (رضي الله عنه) قَالَ: (اسْتَعْمَلَ النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ : ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا قَدِمَ ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ ، وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ ، فَقَامَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) عَلَى المِنْبَرِ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيهِ ، ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعدُ ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ منْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللهُ ، فَيَأتِي فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذا هَدِيَّةٌ أُهْدِيتْ إلَيَّ، أفَلا جَلَسَ في بيت أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إنْ كَانَ صَادِقًا، واللهِ لا يَأخُذُ أحَدٌ مِنْكُمْ شَيئًا بِغَيرِ حَقِّهِ إلاَّ لَقِيَ الله تَعَالَى ، يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَلا أعْرِفَنَّ أحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ، ثُمَّ رفع يديهِ حَتَّى رُؤِيَ بَيَاضُ إبْطَيْهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ) ثلاثًا (متفق عليه)، وكتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى عماله فقال : (إيَّاكم والهدايا ؛ فإنها من الرُّشَا) (ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف)، وعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) عَنِ السُّحْتِ ، فَقَالَ : (الرَّجُلُ يَقْضِي لِلرَّجُلِ الْحَاجَةَ فَيُهْدِي إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ) (الطبراني في الدعاء) .

ومنها : أكل المال الناتج عن الغشُ التجاري ، سواء أكان غشًا في الكمِّ أم في النوع ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ

النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين:١ـ ٦] ، ويستوي في ذلك من يقوم بعملية الغش ، ومن يساعد عليها ، ومن يتستر عليها ، فالجميع شركاء ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : (مَنْ غشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم)، وفي رواية (مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا) (سنن الترمذي) بحذف المفعول ليشمل كل غاش وغشاش ؛ لأنه لا يجوز لك أن تغش المسلم ، ولا غير المسلم ؛ فالإسلام يرفض قضية الغش جملة وتفصيلًا .

ومنها : التحايلُ في التقاضي لأكل أموال الناس بغير حق ، أو بالتزوير وشهادة الزور ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) (صحيح البخاري) .

ومنها : الاعتداء على المال العام ، وتكمن خطورة التعدي على المال العام بسرقته واختلاسه في أن الاعتداء عليه يعدّ اعتداءً على مجموع أفراد المجتمع والوطن؛ لأن الذي يعتدي على الممتلكات والمنشآت العامة إنما يعتدي على الأمة كلها ، ومن ثَمَّ فإن عليه إثم كلِّ مَنْ له حق في هذه الأموال والممتلكات العامة.

ومنها : التهاون في أداء العمل سواء بعدم المحافظة عليه ، أو عدم إتقانه ، أو عدم استيفاء وقته بدءًا وانتهاءً ، فبعض الناس قد يظن أن احتياله على الغياب عن عمله ، أو هروبه منه ، أو عدم الوفاء بساعات العمل يعد أمرًا سهلًا، وهنا نؤكد أن العقد شريعة المتعاقدين ، فكما أن صاحب العمل إذا أكل حق العامل أو ظلمه كان آكلًا للسحت ، لا يكلمه الله ولا

ينظر إليه يوم القيامة ولا يزكيه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي يرويه عن رب العزة: عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (قَالَ اللَّهُ : ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ) (صحيح البخاري)، ففي المقابل إذا أخذ العامل الأجر والحق وقصَّر في عمله ، ولم يتقنه ولم يؤدِّ حق العمل ، كان من الذين لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم يوم القيامة، فالحق مقابل الواجب وإلا لضاع العمل وضاعت الحقوق وانفرط عقد الحياة .

ومنها: الاحتكار واستغلال حاجة الناس: أي: حبسه ومنعه ليزيد ثمنه ، فعن معمر بن عبد الله (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ) (صحيح مسلم)، وعن معقل بن يسار (رضي الله عنه) : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ - أي بمكان عظيم - مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (مسند أحمد)، وعن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (اللهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ) (صحيح مسلم) ، وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ) (سنن ابن ماجه).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إن العاقل لا يمكنه أن يجادل في أن المال الحرام سم قاتل ، وأنه مدمر لصاحبه في الدنيا والآخرة ، وأنه نار تحرق جوف من يأكله ، فهذا الصديق (رضي الله عنه) يضرب لنا مثلًا في الورع ، فقد كَانَ لأبي بَكر الصديق (رضي الله عنه) غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيءٍ ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ لَهُ الغُلامُ : تَدْرِي مَا هَذَا ؟ فَقَالَ أَبُو بكر : (وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإنْسَانٍ في الجَاهِلِيَّةِ وَمَا أُحْسِنُ الكَهَانَةَ ، إلاَّ أنّي خَدَعْتُهُ ، فَلَقِيَنِي ، فَأَعْطَانِي لِذلِكَ ، هَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ). (صحيح البخاري)

إن لأكل الحرام والسحت عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة ، منها :

* **عدم قبول صلاته** : فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: "مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ، وَفِي ثَمَنِهِ دِرْهَمٌ مِنْ حَرَامٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ ". ثُمَّ أَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا. (مسند أحمد)

* **عدم استجابة دعائه** : قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

عَلِيمٌ}، وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟) (صحيح مسلم)

* **محق البركة:** فآكل الحرام لا ينتفع بماله ، فإنه إن أنفق منه لا يبارك له فيه ، وإن تصدق لا يقبل منه، وإن تركه لذريته عُذب به ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (... وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ) (مسند أحمد).

* **ومن عقوبته الإفلاس من الحسنات في الآخرة :** قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟) قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ قَالَ: (فَإِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ ، قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْضَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) (صحيح مسلم).

فليحاسب كل واحد منا نفسه ، وليتذكر أن الله (عز وجل) سائله عن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، مصداقًا لحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ،

وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ) (سنن الترمذي).

*   *   *

سبل تقدم الأمم ودور الفرد فيها

الحمد لله الذي جعل بناء الأوطان من أهم مقاصد الأديان ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأسأله أن يرزقنا الأمن والاطمئنان وسعة الرزق في أوطاننا ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، القائل في حديثه الشريف : (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله) (سنن الترمذي) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإنَّ لكل أمة من الأمم أسسًا وركائزَ تسير عليها ، وتأخذ بها حتى تكون أمةً قويةً متماسكةً ، متقدمةً في مصاف الأمم ، وذلك من خلال البناء والتعمير، فهما عصب الحياة وسبيل من أهم سبل تقدم الأمم والمجتمعات، فأمتنا أمة عمل لا أمة كسل ، أمة بناء لا أمة هدم أو تخريب ، أمة حضارة وعمران .

وندرك أن الأمم لا تُبنى بالكلام ولا بالشعارات ، إنما تبنى بالعلم ، والعمل ، والتضحية ، ومن أهم سبل بناء الأمم وتقدمها :

* **العلـــم** ، إذ لا يتصور أن تقوم أمة ولا تنهض ولا تتقدم بغير العلم ، فالعلم هو القوة الدافعة للأمم نحو التقدم ، وهو الأداة القوية التي تُبْنَى بها الحضارات، وقد أشاد الإسلام بفضل العلم وحث على تحصيله وطلبه، وأعلى من شأنه ومكانته، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة : ١١] ، وكذلك حثَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على طلب العلم ورغب فيه بمرغبات عديدة ، فقَالَ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) (سنن أبي داود).

وحسبنا أنَّ أول آيات نزلت من الوحي أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة، وهي مفتاح العلم ، ونوّهت بالقلم، وهو أداة نقل العلم ، وذلك في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق : ١ : ٥] ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مكانة العلم في الإسلام لا تدانيها مكانة ، كما قال ربنا في كتابه : {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر : ٩] .

على أن العلم النافع هو العلم الذي يأخذ بأيدينا إلى التقدم في جميع مجالات الحياة ، من الطب ، والهندسة ، والصيدلة ، والزراعة، والصناعة ، وغير ذلك من سائر العلوم والمعارف التي نحتاجها سواء في شئون ديننا أم في شئون دنيانا .

والواقع خير شاهد على أن الأمم والدول التي اعتمدت العلم سبيلًا لنهضتها صارت في مقدمة الأمم ، وأن غيرها ممن تقاعست بقيت في مؤخرة الأمم ، فما فشا الجهل في أمة إلا هدم أركانها ، وصدَّع بنيانها ، وأوقعها في التهلكة ، ولله در سيدنا عليّ (رضي الله عنه) حين قال : "العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق" (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) .

* **ومن سبل بناء الأمم**: **العمل والإتقان** ، فقد نظر الإسلام إلى العمل الجاد نظرة توقير وتمجيد ، فرفع قدره وقيمته وجعله سبيلًا للرقي والتقدم ، وعبادةً يثاب عليها فاعلها ، ولأهمية العمل من أجل البناء والتعمير جاء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بنصوص كثيرة تحث على الجدِّ والاجتهاد ، والعمل والبناء ، وترك الخمول والكسل ، فأمر القرآن بالانتشار في الأرض طلبًا للرزق الحلال بعد الأمر بالصلاة ، يقول تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ..} [الجمعة: ١٠] ، وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (ابن أبي حاتم).

وكذلك بيَّنت السنة النبوية أن العمل سبيل لحفظ ماء الوجه والرفعة والعزة والكرامة الإنسانية ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ

يَمْنَعَهُ) (متفق عليه)، وكان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضى الله عنه) يقول: "يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ فَقَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ، اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، وَلَا تَكُونُوا عِيَالًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ" (مسند ابن الجعد).

ولم يكتف الإسلام بمجرد الدعوة إلى العمل كسبيل للبناء فحسب ، بل دعا أيضًا لإتقان العمل وإحسانه، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥] ، وقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): إِنّ اللهَ (عز وجل) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (شعب الإيمان) ، فالإتقان في العمل من أهم القيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام ، فهو أساس نهضة الأمة ، به يعلو شأنها ، وبه يكون بناؤها بناءً قويًا شامخًا .

* **ومنها**: **الإبداع والابتكار**، فهما المعيار الذي يقاس به تقدم الأمم وتأخرها، حيث أصبحت الابتكارات العلمية القائمة على المنهجية الصحيحة من الأمور التي تُسهم بشكل كبير في رقي المجتمع وتقدّم الأمة، وتعمل على تطويرها ، ورفعة تنميتها ، بما يعود عليها بالنفع والازدهار، كما تُسهم في رفع الكفاءة الإنتاجية ، بما يعود بالفائدة على الاقتصاد القومي .

وقد حثّ الإسلام على ضرورة الإبداع والابتكار كسبب من أسباب بناء الأمم والأوطان ، والسبيل إلى ذلك هو إعمال العقول، والخروج من دائرة الجمود والتقليد إلى دائرة الإبداع والابتكار في جميع المجالات التي تحقق التقدم والرقي والازدهار ، فالمتتبع للبيان القرآني يلاحظ

باستمرار الحض على التفكر وإعمال العقل بصيغ متعددة في صور مترادفة، نحو قوله تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤] ، {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: ٩٨] ، وقوله (عز وجل) {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٢٤٢] ، وغير ذلك، مما يؤكد الدعوة إلى الإبداع والابتكار .

وقد دعا القرآن الكريم إلى إعمال العقل والتفكر والتأمل في ظواهر الكون للوقوف على عظمته سبحانه وتعالى ووحدانيته ، فقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤].

ولما نزل قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـــارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٦٤] ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا) (صحيح ابن حبان).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسـوله ، اللهـم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

* **ومن سبل بناء الأمم**: **العدل وتكافؤ الفرص**، فالعدل من أهم دعائم المجتمعات ووسائل استقرارها ، فلا استقرار ، ولا نهضة ولا رقي ، ولا تقدم ولا ازدهار إلا بتحقيق العدل وتكافؤ الفرص وتقديم أصحاب الكفاءات في جميع المجالات .

ولا شك أن الأمم والشعوب التي يتقدم فيها أهل الولاء على أهل الكفاءة لا يمكن أن تنهض من كبوتها أو عثرتها ، أو تشق طريقها نحو التقدم والازدهار ، فلا بد من توفر العلم والكفاءة والأمانة معًا ، يقول الحق (سبحانه وتعالى) على لسان يوسف (عليه السلام): {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥]، ويقول (سبحانه) على لسان ابنة شعيب (عليه السلام) في شأن موسى (عليه السلام): {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦].

ولقد رسَّخ الإسلام قيمة العدل بين سائر البشر ، ليشمل كل طبقات المجتمع دون تمييز أو انحياز ، ودون محاباة لأحدٍ على حساب أحد ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] ، وقال سبحانه: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨]، فالعدل أساس الملك ، وطريق سعادة الأمم ، وسبب بقائها ودوامها ؛ ولهذا قيل: (إنّ اللهَ ينصرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ

كافرةً ، ويخذُلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً) ، وقيل أيضًا : الدول تدوم مع الكفر والعدل، ولا تدوم مع الإيمان والظلم .

والمقصود بالعدل هنا هو تحقيق العدل الشامل في جميع جوانبه ، وقد قالوا: إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق ، ونصبه للحقّ فلا تخالفه في ميزانه ، ولا تعارضه في سلطانه ، وكتب سيدنا عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (رضي الله عنهما) رسالة جاء فيها: (آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ) (سنن الدار قطني)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ ، وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضى لله مِنْهُ ، فَقَدْ خَانَ الله وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ) (مستدرك الحاكم)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ ، فَكَّهُ بِرُّهُ، أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ) (مسند أحمد).

* **ومنها** : **التضحية في سبيل الوطن** ، فحب الوطن لا يتوقف عند مجرد المشاعر والعواطف فحسب ، بل يجب أن يترجم إلى عمل وسلوك صالح نافع للفرد والمجتمع ، ومن ثمَّ فلابد من التضحية لأجل بقائه قويًّا عزيزًا ، فالانتماء للوطن يوجب على أبنائه أن يعتزوا به ، وأن يتكاتفوا جميعًا للحفاظ عليه ، وأن يُسهموا بقوة فِي نهضته بالعلم والعمل والإنتاج.

على أن للتضحية من أجل الأوطان صورًا متعددة ، منها: **التضحية بالنفس**، وهي أعلى صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان ، فحراسة الأوطان والدفاع عنها من أفضل الأعمال عند الله (عز وجل) ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ

خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله) (سنن الترمذي)، ومنها: **التضحية بالمال**، وهو أمر ليس بالسهل الميسور ، بل هو صعب على أكثر الناس؛ لذا كان بذله نوعًا من التضحية والعطاء ، قال تعالى : {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، وقال سبحانه: {وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢].

والتضحية من أجل الأوطان لا تنحصر في بذل النفس والمال فقط ، بل تشمل كل مجالات التضحية بالجهد أو بالفكر أو بالوقت ، لتشمل التضحية كل أنواع الخير ، من أجل نشر العلم وبناء الأمة وصناعة القادة والعظماء ، وكذلك التضحية بالوقت والجُهد؛ لقضاء حوائج الناس والصلح بينهم ، قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤].

فحري بكل فرد من أفراد الأمة أن يعمل من أجل رفعة أمته ، والسعي الجاد لبناء مجتمعه ، والعمل على رقيِّه وازدهاره ، فكل الأمم التي تقدمت علميًّا وحضاريًّا يقف وراءها رجال مخلصون امتلأت قلوبهم بحب أوطانهم ، فشمروا عن ساعد الجد بالعمل المثمر العائد بالنفع على العباد والبلاد .

* * *

دور الشباب في البناء والتعمير ودعم الحوار الحضاري

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه العزيز : {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يوم الدِّينِ .

وبعد :

فممَّا لا شك فيه أنَّ الشباب هم ثروة الأمة ، وسرُّ قوتها ونهضتها ، وهم القادة وحاملو لواء المسئولية في المستقبل ، وهم الأكثر تضحية وفداء ، فقلوبهم نقية ، وعقولهم ذكية ، والأمم القوية تبنى بعقول وسواعد أبنائها ، وبوعيهم، وفهمهم، وعطائهم وتضحياتهم في سبيلها ، وقد عبر الوحي الإلهي عن مرحلة الشباب بالقوة بين ضعفين، ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، فقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم: ٥٤] ، فالشباب مرحلة القوة والنشاط، ومظنة العمل والعطاء ، يتميز فيها الشخص بالتفتح الذهني، والقوة البدنية، والأمل الواسع ، والانفتاح على كل ألوان الحياة ، لا يهدأ له بال حتى يُرضي آماله ، ويحقق طموحاته ، وهو بهذه الميزات قوة دافعة في نمو الحياة وازدهارها إذا أُحسن استغلاله واستثماره في المجالات المختلفة.

ومع كون فترة الشباب جزءًا من العمر ومرحلة من مراحله ، إلا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بين أن الإنسان يُسأل عنها سؤالا خاصًا ؛ لما

لهذه المرحلة من أثر وأهمية في حياة الأفراد والأمم والشعوب ؛ وتنبيهًا للشباب ليجتهدوا فيها ، ويحسنوا استثمارها ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (لا تَزُولُ قَدِمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرُهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ) (سنن الترمذي)، فإن اغتنم الشباب هذه الفترة المهمة من أعمارهم ، وداوموا على الطاعة والاستقامة كانوا في منزلة عالية ومكانة سامية ، فقد جعل (صلى الله عليه وسلم) الشاب الصالح يلي الإمام العادل في المنزلة يوم القيامة، فقال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ..) (متفق عليه).

ولقد قدّم لنا القرآن الكريم العديد من النماذج لشباب من الأنبياء والمرسلين، وغيرهم من الصالحين ؛ ليكونوا قدوة صالحة يقتدى بهم في القول والفعل ، فهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) واجه عبدة الأصنام من قومه ، وتحداهم ، وأقام عليهم الحجة في حوار عقلاني رشيد ، وهو في سن الشباب ، قال تعالى : {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} [الشعراء: ٦٩-٧٣].

وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) في ريعان شبابه ، حينما توجّه إلى أرض مدين، وجد أناسًا لا يتعاونون، ولا يعبأون بالضعفاء؛ كالمرأتين اللتين اضطرتهما الحاجة إلى مزاحمة الرجال، فثارت نخوته، وفطرته السليمة ،

تلبية لدواعي المروءة والنجدة وإغاثة الملهوف، وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص:٢٣ ، ٢٤].

وهذا يحيى (عليه السلام) نُودي ليحمل عبء الدعوة ، وينهض بالأمانة في قوة وعزم وهو في سن الشباب ، لا يضعف ولا يتهاون ، ولا يتراجع عن تكاليف الرسالة، مع ما أتاه الله من المؤهلات التي لا تتوفر إلا للشباب ، قال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم: ١٢].

ولعظم دور الشباب في حياة الأمة الإسلامية ، فقد اهتم النبي (صلى الله عليه وسلم) بغرس مبادئ العقيدة الصحيحة ، والقيم الراقية في نفوس الشباب في سن مبكرة؛ لأنهم دعائم مستقبل الأمة ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : كنت خلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومًا ، فقال: (يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ) (سنن الترمذي) .

وإذا كان الإسلام قد اهتم بالشباب هذا الاهتمام، وأولاه هذه العناية الفائقة فلا بد إذًا من الاستفادة اليوم من طاقات الشباب، وحسن توجيهها

فيما يخدم بناء الوطن اقتصاديًا وثقافيًا، وعلميًا، وفي سائر مجالات الحياة، وهو منهج النبي (صلى الله عليه وسلم)، فهذا زيد بن ثابت (رضي الله عنهما) كان أحد كتاب الوحي الشريف، ونظرًا لما لمسه النبي (صلى الله عليه وسلم) فيه من فطنة وذكاء ، وقوة حافظة أمره (صلى الله عليه وسلم) بتعلم لغة يهود فكان عند حسن ظن النبي (صلى الله عليه وسلم)، فأتقنها في وقت وجيز، فعن زيد بن ثابت (رضي الله عنهما) ، قال: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتِ كِتَابِ يَهُودَ. قَالَ (إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ). قَالَ فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ ، فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ) (سنن الترمذي). وقد بزغ نجمه في مجالات علمية أخرى كالقضاء، والفُتيا، وعلم الفرائض، وغيرها، مما أهله في عهد أبي بكر (رضي الله عنه) لتحمل مهمة من أعظم المهام في تاريخ الإسلام، ألا وهي جمع القرآن الكريم.

ولم يقف دور الشباب عند حد القيام بالمهام داخل المدينة بل تجاوزها ، فهذا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى اليمن سفيرًا، ومعلمًا وقاضيًا، وناشرًا لدين الله (عز وجل)، فقال له: (يَا مُعَاذُ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أهلِ الكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله ، وَأَنِّي رسولُ الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أنَّ اللهَ (عزّ وجلّ) قَدِ افْتَرضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أنَّ اللهَ (عزّ وجلّ) قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ) (متفق عليه) ، واستوثق النبي (صلى الله عليه وسلم) من كفاءته وقدرته في أمر القضاء والفتيا ، حين سأله:

(كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟) ، قال: بكتاب الله ، قال: (فَإِنْ لَمْ تَجِدْ). قال: فبسنة رسول الله ، قال: (فَإِنْ لَمْ تَجِدْ). قال: أجتهد رأيي ولا آلو (أي: ولا أقصر في الاجتهاد). فضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدّره وقال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِى رَسُولَ اللَّهِ) (سنن أبي داود)، ولا غرو إن قلنا: إن هذا الشاب قد أنهى هذه الحياة الحافلة بكل هذا العطاء والجهد ، وهو لا يزال شابًا ، فقد توفي (رضي الله عنه) ولم يتجاوز الأربعين من عمره، فحري بالشباب أن ينظروا إلى هذه النماذج المضيئة نظرة إكبار وإجلال ، وأن يعلموا أن الحياة كبيرة بجلائل الأعمال .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام :

إن الشباب الحقيقي قيمٌ ، وأخلاقٌ ، ونبلٌ ، ومروءةٌ ، وشهامةٌ ، وطاقةٌ ، وعملٌ ، وإنتاجٌ ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحث الشباب على العمل والإنتاج ، والجد والاجتهاد دعمًا لبناء المجتمع ، فالإسلام يعتبر العمل الجاد سبيلا للرقي والتقدم ويراه عبادةً يُثاب عليها فاعلها.

ولعظم دور الشباب في حياة الأمة ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحاورهم ، ويصوبّ لهم مفاهيمهم وتصوراتهم ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعوهم إلى تحكيم عقولهم ، وتصحيح أفكارهم وميولهم

وتهذيب سلوكهم ، فقد روي أبو أُمَامَةَ (رضي الله عنه) : أَنَّ غُلَامًا شَابًّا أَتَى رَسُولَ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِي الزِّنَا، فَصَاحَ النَّاسُ. فَقَالَ: مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ): أَقِرُّوهُ ، ادْنُ. فَدَنَا حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ)، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ): أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ، أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ، أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ، أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ . فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ) يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ ، وَقَالَ : اللهُمَّ كَفِّرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ) (المعجم الكبير).

وكما كان للشباب دور هام في بناء الحضارة الإنسانية فقد كان للفتيات أيضا دور بارز لا يقل أهمية في صنع التاريخ ، وذلك بالمشاركة الفاعلة في الأحداث الكبرى ، والأمور العظمى التي مرت بها الأمة في تاريخها الطويل كالهجرة ، ورد العدوان ، ونشر العلم والثقافة ، والمشاركة المجتمعية في كل مناحي الحياة ، فعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ (رضي الله عنها) ، قَالَتْ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نَسْقِي وَنُدَاوِي الجَرْحَى ، وَنَرُدُّ القَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ) (صحيح البخاري)، ولقد كان لأمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) أثر علمي بالغ في تاريخ الحضارة ، ولا أدل على ذلك من أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، كانت مرجعًا للصحابة عندما تختلط عليهم الأمور ، فعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري (رضي الله عنه) ، قَالَ: (مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا أَصْحَابَ

رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَدِيثٌ قَطُّ فَسَأَلْنَا عَائِشَةَ إِلاَّ وَجَدْنَا عِنْدَهَا مِنْهُ عِلْمًا) (سنن الترمذي).

فلا شك أن على الشباب الدور الأكبر تجاه وطنه حاضره ومستقبله ؛ لذا وجب عليهم أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة ، وأن يتمسكوا بالفكر المعتدل النابع من الفهم الصحيح للإسلام ، حتى يكونوا قادرين على مواجهة التحديات وحمل الرسالة ، وتأدية الأمانة، وقيادة سفينة النجاة والوصول بها إلى بر الأمان ، ولا يكون ذلك إلا بالجهد والاجتهاد، وعدم الركون إلى الدّعة أو الراحة أو الكسل ، وأن يتذكروا قول الشافعي:

ومن فاتـهُ التَّعليمُ وقـتَ شبـابه *** فكبِّر عليـه أربعًـا لوفـاتـه
فَذَاتُ الْفَتَى واللَّهِ بالْعِلْمِ وَالتُّقَى *** إذا لم يكونَا لا اعتبار لذاتهِ

وقال أيضًا :

تَعلم فليسَ المرءُ يولـدُ عالمًا *** وَلَيْسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وإنَّ كَبِير الْقَوْمِ لاَ عِلْمَ عِنْـدَهُ *** صَغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عَلَيهِ الْجَحَافِـلُ
وإنَّ صَغيرَ القَومِ إنْ كانَ عَالِمًا *** كَبيرٌ إذَا رُدَّتْ إليـهِ المحَافِـلُ

وقول الآخر:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمُرُوءَةُ يَافِعًا *** فَمَطْلَبُهَـا كَهْلا عَلَيْهِ عَسيرُ

كما أنّ على الشباب أن يوسع علومه ومداركه وأفقه ، ليكون قادرًا على التواصل والحوار الحضاري ، والإسهام في تحقيق السلم العالمي بما يملكه الشباب المثقف ، الواعي بطبيعة الأديان من روح وثابة للتواصل والبناء والتعمير ، ومواجهة صناعة الموت بالأمل وصناعة الحياة.

وختامًا : فإن الشباب الواعي هو الذي يبني ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب، ويقتحم الصعاب ، ويواجه التحديات بعزيمة قوية ، وروح وثابة نحو

البناء والتعمير وعمارة الكون وحب الخير للناس جميعًا ، مؤمنًا بحق الجميع في الحياة الكريمة ، بغض النظر عن الدين ، أو اللون ، أو الجنس ، أو العرق .

* * *

نعمة الماء وضرورة المحافظة عليها
وترشيد استخدامها

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: ٣٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن من أجل نعم الله (عزّ وجلّ) على خلقه ، وأعظمها قدرًا ، نعمة الماء، فهو أصل الحياة ، وأساس الحضارة والرقي ، ومن أهم مصادر الرخاء وأصل النماء وسبب البقاء ، وقد جاءت النصوص الشرعية تقرر أن الماء أصل الحياة ، ومصدر الإحياء ، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: ٣] ، وقال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} [النور: ٤٥].

فالماء أغلى ما تمتلكه الإنسانية ، به حياة الأرواح ، وطهارة الأبدان ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان ٤٨]، وهو رزق يسوقه الله (عز وجل) لخلقه ينزله على من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء بقدرته، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}

[الواقعة: ٦٨ – ٧٠] ، وقال (عز وجل) : {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقًا وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ} [غافر ١٣]، وقال سبحانه: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥] ، وكثيرًا ما يذكرنا ربُّ العزة سبحانه بنعمتي الماء والطعام ويجمع بينهما ، فيقول (عز وجل) : {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} [عبس: ٢٤ – ٢٦].

ومما يُشعرنا بأهمية وقدر هذه النعمة اهتمام القرآن الكريم بالحديث عنها ، فقد تحدث القرآن الكريم على لسان فرعون وهو يتباهى باتساع وعظمة ملكه قائلا: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف: ٥١] ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يخبرنا بقيمة نهر النيل ويبشرنا ببقائه ، فيقول : (سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ ، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ) (صحيح مسلم)، وهذا يفرض علينا جميعًا ألا نفسد نهرًا من أنهار الجنة بتلويثه ، أو إهماله .

ولقد اعتنى الإسلام بنعمة الماء عناية كبيرة ، وأمرنا بحسن استعماله، والمحافظة عليه، وعدَّ ذلك واجبًا شرعيًّا ؛ لذا حذَّر الإسلام من الإسراف في استخدامه ، أو تلويثه بإلقاء النجاسات ، أو تصريف مياه الصرف الصحي، أو مخلفات المصانع والشركات فيه ، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَ :

الْبرَازَ في الْمَوَارِدِ ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَالظِّلِّ) (مسند أحمد)، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ) (متفق عليه).

وإن من صور المحافظة على الماء : **ترشيد استهلاكه، وعدم الإسراف في استخدامه ، حتى وإن كان ذلك في ممارسة العبادات والطاعات** ، قال تعالى : {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١] ، فالمسرفون يكرههم الله تعالى ، وهم مبعدون من رحمة الله ورضوانه ، محرومون من نوره وهدايته ، وقد شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) في النهي عن الإسراف في استخدام الماء واعتبره تعديًا وظلمًا ، فهذا الصحابي الذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ليتعلم منه الوضوء فأراه ثلاثًا ثلاثًا ، ثم قال: (هَذَا الْوُضُوءُ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا ، فَقَدْ أَسَاءَ، أَوْ تَعَدَّى، أَوْ ظَلَمَ) (سنن أبي داود) ، فجعل (صلى الله عليه وسلم) الزيادة على قدر الحاجة ظلمًا وإساءة في استعمال النعم التي أنعم الله تعالى بها علينا ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ)، (سنن أبي داود)، وكأنه (صلى الله عليه وسلم) يشير إلى أن الإسراف في استخدام الماء تعدٍّ على حق الآخرين ، ولم لا؟ والإسراف في الماء صورة من صور الفساد وإهلاك الحرث والنسل، قال تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥].

ومن صور المحافظة على الماء: الحرص على الإفادة منه مهما كان قليلا ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) ربما يغتسل أو يتوضأ مع بعض

نسائه في إناءٍ واحد (متفق عليه)، فعلينا أن نقتدي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونحرص على الإفادة من الماء بكل قطرة منه ، وعدم تلويثه ، أو الاعتداء على مصابه ومصادره ومجاريه التي يعد الاعتداء عليها اعتداء على حق المجتمع كله ، وتضييعًا لمصلحة معتبرة بما يتنافى مع قيمة هذه النعمة ، فالماء الذي نهدره سيحاسبنا الله على كل نقطة منه.

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة وهو يعلمنا قيمة الماء وضرورة المحافظة عليه، وعدم الإسراف في استخدامه، حيث كان (صلى الله عليه وسلم) يتوضأ بالمُدِّ ، والمُدُّ ملء كفي الرجل المتوسط ، ويغتسل بالصاع (صحيح مسلم) ، والصاع (أربعة أمداد) إلى خمسة أمداد، وإنما كان هذا القدر القليل يكفي النبي (صلى الله عليه وسلم) لوضوئه أو اغتساله من شدة حرصه (صلى الله عليه وسلم) على نعمة الماء .

وذات يوم يمرّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وهو يتوضأ، فقال: (مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟). فقال: أفي الوضوء سرف؟. قال: (نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ)، (مسند أحمد)، وسئل جَابِرِ بْنِ عَبْدِالله (رضي الله عنهما) عَنِ الْغُسْلِ فَقَالَ للسائل: (يَكْفِيكَ صَاعٌ ، فَقَالَ رَجُلٌ مَا يَكْفِينِي، فَقَالَ جَابِرٌ : كَانَ يَكْفِي مَنْ هُوَ أَوْفَى مِنْكَ شَعَرًا وَخَيْرٌ مِنْكَ) (صحيح البخاري)، فالماء الذي ساقه الله (عز وجل) إلينا بقدر محدود، ونظام محكم ، يجب أن يستخدم بحذر؛ ليحيا به الإنسان، والحيوان، والطير ، والنبات ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} [المؤمنون: ١٨].

إن الإسلام ينظر إلى نعمة الماء بوصفها ثروة قومية وإنسانية ، لكل الناس حقٌ فيها فلا يحرم منها أحد ، ومن ثم قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم) : (النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ : فِي الْمَاءِ ، وَالْكَلَأِ ، وَالنَّارِ) (سنن أبي داود)، ولذا حرص سلفنا الصالح على الماء حرصًا شديدًا ، كما حرصوا على بقائه طاهرًا حتى يتمكنوا من شربه والتطهر به في صلاتهم وسائر عباداتهم التي تحتاج إلى طهارة .

ولقد بلغ من عناية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالحفاظ على الماء أن وجه المسلمين إلى تغطية أواني الماء لحمايته من الملوثات التي قد تنتقل إليه من الهواء ، أو من الحشرات الناقلة للجراثيم والطفيليات ، فعن جابر (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : (غَطُّوا الإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ وَأَغْلِقُوا الْبَابَ وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَحُلُّ سِقَاءً وَلاَ يَفْتَحُ بَابًا وَلاَ يَكْشِفُ إِنَاءً فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ) (صحيح مسلم). وأوكوا السقاء أي : اربطوا فوهات أواني الماء لحمايتها من التلوث والأوبئة.

إنَّ المجتمع المصري منذ نشأته تقوم عقيدته على احترام نعمة مياه نهر النيل، وتقوم ثقافة أبنائه منذ القدم على الحرص على نهر النيل وعدم تلويثه، واعتبار تلويثه جريمة من الجرائم الكبرى، وقد كان المصري القديم يكتب من ضمن وصاياه في نهاية حياته أنه لم يفعل كذا وكذا من الجرائم ، وأنه لم يلوث ماء النهر ، وكأنه يتقرب إلى الله بهذه الفضيلة ، وابتعاده عن تلك الجريمة النكراء : جريمة تلويث مياه النهر.

فهذه ثقافة المصريين منذ القدم ، وعقيدتهم منذ الأزل في احترام مياه النهر، والحفاظ على المياه ، وعدم تلويثها ، وهو ما أكدت عليه شريعتنا الغراء .

لقد اعتبر الإسلام الماء ثروة يمكن التصدق بها كالمال ، وأوجب على كل الناس المحافظة عليها ، فحينما أراد اليهود أن يحتكروا ماء المدينة بشراء بئر رومة قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ ، فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلاَءِ المُسْلِمِينَ) (سنن الترمذي)، وفي رواية : (مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ ؟) فَاشْتَرَاهَا عُثْمَانُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قال: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقُلْتُ: إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُهَا ، يَعْنِي بِئْرَ رُومَةَ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ) (مسند أحمد) ، وفي ذلك درس وافٍ لكل الموسرين في كل عصر ومصر أن يقفوا بجوار أوطانهم ، وأن يتحملوا مسئولياتهم تجاه بلدانهم وأهليهم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

إخوة الإسلام:

لقد اهتمَّ الإسلام بالمحافظة على نعمة المياه وضرورة ترشيد استخدامها ، واهتمَّ كذلك بسبل تعزيز وجودها ، وتكثيرها، وذلك بإيجاد بدائل تساعد على وفرة الماء، منها : الترغيب في حفر الآبار واستخراج المياه الجوفية ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنهما) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدُ حَرَّى مِنْ جِنٍّ وَلاَ إِنْسٍ وَلاَ طَائِرٍ إِلاَّ آجَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (صحيح ابن خزيمة)، بل جعل الإسلام ذلك من أبواب الصدقات الجارية التي لا ينقطع ثوابها ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم): (سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ ، وهُو فِي قَبْرِهِ : (مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهْرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (مسند البزار).

إنَّ الماء هو عصب الحياة التي يتوقف استمرارها على بقائه ، فبدونه يهلك الحرث والنسل، وتزهق الأنفس، وتهلك الثمرات ، فعلينا أن نتقي الله (عز وجل) فيما بين أيدينا من نعمة الماء ، إذ إن التقوى هي سبيل النجاة والخلاص من الأزمات ، يقول الله تعالى : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٣،٢]، وأن نراعي هذه النعمة التي هي سرّ الحياة ، وليتحمل كل منا مسئوليته أمام الله تعالى في الحفاظ على ما أولانا من نهر عظيم وماء عذب ، فغيرنا في أمس الحاجة إلى قطرة ماء تروي ظمأه ، وتنبت كلأه .

وأخيرًا فإننا نؤكد أنَّ تلويث المياه ، أو إهدارها وعدم المحافظة عليها صورة من صور الفساد الذي نهى الله عنه ، قال تعالى : {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦ ، ٨٥]؛ لذا وجب علينا جميعًا أن نحافظ على هذه النعمة التي وهبها الله لمصرنا الغالية، وأن نشكر الله (عز وجل) عليها ، فإن شكر النعمة يديمها ، ويزيدها ، ويحقق البركة فيها، قال

تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧]، والشكر لا يكون بالكلام وحده ، وإنما يكون بالاستخدام الأمثل للنعم مع الوفاء بحقها.

* * *

دروس من الهجرة النبوية

الحمد لله ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابهِ الكريم: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلاشك أن هجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة حدث تاريخي عظيم غير مجرى التاريخ البشري ، فقد كانت الهجرة فرقانًا بين الحق والباطل ، وتحولًا إيجابيًّا نحو بناء الدولة المدنية على أسس راسخة من العدالة والمساواة ، وحرية الاعتقاد ، وحفظ الكرامة الإنسانية ، وترسيخ لفقه التعايش السلمي ، وتأسيس للعيش الإنساني المشترك .

ونظرًا لما يمثله حادث الهجرة من قيمة في نفوس الصحابة (رضوان الله عليهم)، فقد استقر رأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على أن يكون العام الذي وقعت فيه الهجرة هو بداية التأريخ الإسلامي ، فكان رأيهم هذا مع ما فيه من حكمة دليلًا على أن الهجرة النبوية المشرفة أهم حدث في تاريخ المسلمين .

إنَّ المتأمل في هذا الحدث التاريخي العظيم يستنبط منه الكثير من الدروس والعبر التي تعد نبراسًا ينير للأمة طريقها ، في شتى مجالات الحياة، ومن هذه الدروس:

* **حسن التوكل على الله (عزّ وجلّ) مع حسن الأخذ بالأسباب:** إذ إن الإسلام دين لا يعرف التواني والكسل والخمول، ولا يعرف التواكل ، بل يحارب كل ذلك وينبذه، ويدعو إلى التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، ولقد ضرب نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في حسن التوكل على الله (عز وجل) حين قال له الصديق (رضي الله عنه) وهما في الغار : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تحت قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ : مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا) (متفق عليه) ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠]، ومع هذا اليقين في الله ، وصِدْق التوكل عليه نراه (صلى الله عليه وسلم) يتخذ من الأسباب ما يعد أنموذجًا لحسن التوكل وفهمه فهمًا دقيقًا ، وبما يؤكد أنه لا تناقض بين الأمرين، بل إن حسن التوكل على الله يقتضي حسن الأخذ بالأسباب ، قال سهل بن عبد الله التستري : التوكل على الله حال النبي (صلى الله عليه وسلم)، والكسب سنته، فمن بقي على حاله فلا يتركن سنته. (الرسالة القشيرية).

في هذه الرحلة المباركة يُعلّم النبي (صلى الله عليه وسلم) أمته كيف يكون التخطيط المحكم، والترتيب الدقيق ضرورة من ضرورات النجاح، وتخطي الأزمات، فقد جهز النبي (صلى الله عليه وسلم) راحلتين ، واختار الصاحب ، وكان الخروج ليلًا من بيت أبي بكر (رضي الله عنه) ، واختار دليلًا ماهرًا إيمانًا منه (صلى الله عليه وسلم) بتقديم الكفاءات واستثمار الطاقات مهما اختلفت الأفكار والرؤى أو حتى العقائد ، ثم كلف عامر بن فهيرة (رضي الله عنه) بتتبع آثارهما للعمل على إخفائها أخذًا بالأسباب وهو يدرك غاية الإدراك أن الله كفيل به وبصاحبه، غير أنه (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يعلمنا أن سنة الله تعالى في كونه تقتضي الأخذ بالأسباب ثم تفويض الأمر لله (عز وجل) .

*ومن الدروس المستفادة من الهجرة ترسيخ القيم الإنسانية والتحلي بمكارم الأخلاق التي قامت عليها الرسالة المحمدية : ومن مكارم الأخلاق التي نتعلمها من الهجرة خلق الأمانة ، والتي تعد من أبرز ملامح الدين الإسلامي ومن أهم أخلاقياته ، ومن ثَمَّ أمرنا الله (عز وجل) بها ، فقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] .

ولقد تَمَثَّلَ خلق الأمانة في أعلى صوره وأكمل معانيه في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى إن أعداءه وخصومه كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، ولم يجدوا أفضل منه أمانةً وصدقًا ووفاءً بالعهد ومحافظة

على الحقوق ، فكانوا لا يستأمنون غيره على أموالهم ونفائسهم ، وحين هاجر (صلى الله عليه وسلم) أمر عليًّا بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن ينام في فراشه ، وأن ينتظر ليرد الأماناتِ المودعة عنده إلى أهلها (سيرة ابن هشام)، مع أنهم قوم ناصبوه العداء ، وأخرجوه وآذوه وآذوا أصحابَه وأخذوا كل ما يملكون؛ ذلك لأن المؤمن لا تحل له الخيانة حتى مع أعدائه، والله تعالى يقول: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨] ، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ) (سنن أبو داود).

ومن كريم الأخلاق التي نتعلمها من الهجرة خلق الإيثار ، والذي يعني : تقديم الغير على النفس وتفضيله فيما قد يحتاج الإنسان إليه، وهو خلق لا يتحلى به إلا أصحاب النفوس السوية، والفطر النقية، ويتجلى لنا هذا الخلق في أسمى معانيه في الهجرة في موقف المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وليس أدل على ذلك من موقف عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع (رضوان الله عليهما)، فقد تآخيا في الله (عز وجل) استجابةً لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودعوته للتآخي بين المهاجرين والأنصار ، فكانا مثلًا فريدًا في الإيثار والعفة ، فَقد قَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ لعبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنهما) : إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا ، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا قَالَ: فَقَالَ لَهُ عبدُ الرحمنِ : (لا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ

سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ) (صحيح البخاري)، فدلوه على سوق بني قينقاع، فذهب وتاجر وربح ، حتى صار من أغنياء المسلمين.

وهذه العفة لم تكن في عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) وحده، بل كانت سمة في المهاجرين جميعًا رغم فقرهم وشدة حاجتهم ، قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: ٨] ، كما أن الكرم والإيثار كان سمةً للأنصار جميعًا ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩] ، هذه الأخوة حين جمعت قلوب المسلمين صارت الأمة كيانًا متماسكًا قويًّا ، أما حين خفتَ ضوؤها وتغلبت الأثرة والأنانية على كثير من أبنائها فحل الضعف في المجتمع ، وضعُفَ كيان الأمة.

* **ومن أهم دروس الهجرة**: التحول الإيجابي نحو البناء والتعمير ، التحول من الجهل إلى العلم، ومن البطالة والكسل إلى الجد والعمل والإتقان ، التحول إلى بناء الدولة وبناء الحضارة، لأن ديننا دين البناء والتعمير وعمارة الكون ، قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] ، فأمتنا أمة عمل لا أمة كسل، أمة بناء لا أمة

هدم أو تخريب، أمة حضارة، ولم يكن التخلف أبدًا سمة من سماتها، فحري بكل مسلم يحب دينه ويعتز به أن يعمل من أجل رفعة دينه وعزة وطنه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسـوله ، اللهـم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

من أهم الدروس المستفادة من الهجرة النبوية : ضرورة فهم الواقع والتكيّف معه وبناء الحكم على الفهم الدقيق له ، فعندما أسلم صفوان بن أمية قِيلَ له وَهُوَ بِأَعْلَى مَكَّةَ : إِنَّهُ لَا دِينَ لِمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ ، فَقَالَ: لَا أَصِلُ إِلَى بَيْتِي حَتَّى أَقْدُمَ الْمَدِينَةَ. فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ ، فَنَزَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : (مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا وَهْبٍ؟) ، قَالَ: قِيلَ إِنَّهُ لَا دِينَ لِمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (ارْجِعْ أَبَا وَهْبٍ إِلَى أَبَاطِحِ مَكَّةَ فَقَرُّوا عَلَى مِلَّتِكُمْ ، فَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ) (سنن البيهقي) ، وفي هذا تأكيد لما يقرره أهل العلم من أن الفتوى قد تتغير بتغير الزمان، أو المكان ، أو الحال، فبعد ما كانت الهجرة مطلبًا ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧] ، تغير حكم الهجرة بعد فتح مكة، بقوله (صلى الله عليه وسلم) : (لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ) (متفق عليه).

وإذا كان أمر الهجرة المكانية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة قد انتهى بفتح مكة ، فإن كل معاني الهجرة النبيلة لا زالت قائمة وهي مما يجب علينا أن نحرص عليه ، كحسن الأخذ بالأسباب تعلمًا ، وتعليمًا ، وتخطيطًا ، وعملًا ، وإنتاجًا، وإتقانًا ، بالتحول الإيجابي من البطالة والكسل إلى الجد والعمل والإتقان ، ومن الأثرة والأنانية والعصبية الجاهلية إلى الإيثار والإخاء الإنساني الصادق ، والإيمان بالتنوع ، وحق الإنسان في الاختيار ، وحرية المعتقد ، وعلاقات حسن الجوار ، والعمل على بناء الإنسان إيمانيًّا ، وعلميًّا ، وفكريًّا ، وسلوكيًّا ، وأخلاقيًّا ، واقتصاديًّا ، واجتماعيًّا بناءً سليمًا راسخًا ، يبني الدولة ويصنع الحضارة ، ويحقق صالح البشرية جمعاء ، ويحفظ كرامة الإنسان كإنسان، قال (صلى الله عليه وسلم): (... وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) (متفق عليه).

وختامًا: نذكر بأن شهر الله المحرم أحد الأشهر الحرم ، ويستحب الإكثار من الصوم فيه عامة ؛ قال (صلى الله عليه وسلم): (أَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلاَةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ صِيَامُ شَهْرِ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ) (صحيح مسلم) ، وصوم يوم عاشوراء خاصة ؛ لقوله (صلى الله عليه وسلم) : (صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ) (صحيح مسلم)، ولما قَدِمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

الْمَدِينَةَ رَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: (مَا هَذَا) ، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى ، قَالَ: (فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ) فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ (صحيح البخاري)، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): " حِينَ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ – إِنْ شَاءَ اللَّهُ – صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ) (صحيح مسلم) ، أي: صمنا التاسع مع العاشر ، فمن السُّنةِ صيام العاشر من المحرم ، ومن تمامها وكمالها صيام التاسع والعاشر منه.

* * *

حتمية الاصطفاف الوطني والعربي
لتحقيق العزة والكرامة وحماية المقدسات

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فقد كرَّم الله (عز وجل) الأمة المحمدية ، وبيّن فضلها ومكانتها ، وخيريتها بين الأمم ؛ لتعلم أنها صاحبة رسالة ومسئولية قبل أن يكون ذلك تشريفًا وتكريمًا لها ، حيث يقول سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، كما أن عِلم الأمة بهذه الخيرية يمنحها الثقة بنفسها في مواجهة التحديات ، وفي هذا يقول تعالى: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩].

ومما لا شك فيه أن أمتنا العربية والإسلامية تواجه هذه الأيام تحديات خطيرة تحاول النيل من عزتها وكرامتها ومقدساتها ، مما يُحتم علينا اصطفافًا وطنيًّا وعربيًّا ؛ لتحقيق العزة والكرامة ، وحماية المقدسات ؛ لأن الاعتداء على المقدسات اعتداء على كل القيم الإنسانية والحضارية ، ولا يولد إلا العنف والكراهية البغيضة.

إن وحدة الصف الوطني والعربي، وتوحيد الجهود ، ونبذ الخلافات واجب على الأمة في كل زمان ومكان ، وفي هذه المرحلة الحرجة

أوجب، فنحن أمام قضية تحد ووجود ، ويجب على الأمة أن تتجاوز أي خلافات ، فلا سبيل أمامنا سوى أن نكون على قلب رجل واحد ، امتثالًا لقول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..} [آل عمران: ١٠٣] ، ويقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) (صحيح مسلم).

إن وحدة الأمة واعتصامها بدينها، والحفاظ على ثقافتها وهويتها، هو سرُّ بقائها، ودعامة قوتها ، والسبيل إلى نهضتها ، ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلا للأمة في تماسكها وتآزرها فقال: (مثل المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى) (متفق عليه)، وعندما أراد أحد الشيوخ أن يُعلِّم أبناءه أهمية الوحدة وأنها سبب القوة، وخطورة الفرقة وأنها سبب الشتات والضياع ، جاء بحزمة من الحطب وقال: من يستطيع منكم أن يكسر هذه الحزمة بضربة واحدة أو بضربتين ، فحاول كل واحد منهم فلم يفلح ، ففك حزمة الحطب ووزعها على أبنائه ، وأعطي كل واحد منهم عودًا فكسره بضربة واحدة ، فقال:

تأَبَى الرماحُ إِذا اجتمعْنَ تكسُّرًا ... وإِذا افترقْنَ تكسَّرتْ أفرادَا

فأمة ربها واحد ، ودينها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، وقبلتها واحدة ، ولغتها واحدة ، ينبغي أن تكون يدًا واحدة ، قال تعالى: {إِنَّ

هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء: ٩٢] ، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ) (سنن الترمذي) .

إن التفرق والاختلاف من أسباب الهزيمة والفشل والضعف ، وهو سلوك ذميم عاب الحق (تبارك وتعالى) على الأمم السابقة وقوعهم فيه بعد أن بين لهم طريق النجاة منه ، وحذرنا من اتباع نهجهم ، فقال تعالى : {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥] ، وقال سبحانه : {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

كما أن التفرق واختلاف الكلمة يذهب مهابة الأمة من قلوب أعدائها، ويورث الضعف والوهن، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) ، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ) ، فقال قائل: يا رسول الله ، وما الوهن؟ قال: (حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (سنن أبي داود) ، وهذا ملك الروم حينما رأى الخلاف الذي كان بين معاوية (رضي الله عنه) ، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فتدانى إلى بعض بلاد المسلمين في جنود عظيمة طمعًا فيها ، فكتب إليه معاوية : (والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك..) (البداية والنهاية) ، ويكفي في التحذير من الفرقة أن

من مات عليها مات ميتة جاهلية ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ...) (صحيح مسلم).

فإذا كان تحالف أهل الشر واضحًا، فالأولى بقوى الخير والعدل والرحمة والإنسانية أن تقف صفًّا واحدًا موحدًا ، فكم تحتاجُ أمتنا اليوم إلى قلوبٍ سليمةٍ منفتحة على كلِّ أبوابِ الخير ، لأن الخطر يتهددنا جميعًا وبلا استثناء ، فقوة أي دولة عربية من قوة أمتها ، وقوة الأمة العربية من تماسك جميع دولها ، وإذا كانوا يقولون : رجل فقير في دولة غنية أفضل من رجل غني في دولة فقيرة ، لأن الدولة الغنية تكفل أبناءها ، أما الرجل الغني في دولة فقيرة فهو عرضة لكثير من المخاطر ، فإننا نقول قياسًا على هذه المقولة : إن أي دولة فقيرة أو ضعيفة تصير قوية في ضوء لحمة ووحدة عربية حقيقية ، وإن أي دولة قوية تصير ضعيفة في أمة مشتتة وغير متماسكة .

إن وحدة الأمة واصطفافها وبُعدها عن التشرذم والتفرق أمر لا بديل عنه ولا مفر منه اليوم ؛ حماية للمقدسات والحرمات من أن تنتهك أو تغتصب ، وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس ، فالمسجد الأقصى مسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وبداية معراجه إلى سدرة المنتهى ، ربط القرآن الكريم بينه وبين البيت الحرام برباط مقدس لا ينفك إلى يوم الدين ، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١].

إن بيت المقدس يحتل مكانة عظيمة عند المسلمين ، وفي نصرته عز أمتنا وفي خذلانه ذلها وهوانه ، فهو أولى القبلتين ، وثاني المسجدين ، وأحد المساجد التي يشد إليها الرحال ، وبيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، فعَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَوْدَةَ عَنْ أَخِيهِ ، أَنَّ مَيْمُونَةَ ، مَوْلَاةَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَالَ : (أَرْضُ الْمَنْشَرِ ، وَالْمَحْشَرِ ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ) ، قَالَتْ : أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ أَوْ يَأْتِيَهُ ، قَالَ: (فَلْيُهْدِ إِلَيْهِ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَهْدَى لَهُ كَانَ كَمَنْ صَلَّى فِيهِ) (مسند أحمد) .

كما أنه يحتل مكانة عند أتباع نبي الله عيسى (عليه السلام) ، فقد ولد عيسى (عليه السلام) في بيت لحم في فلسطين، فالمساس بالقدس هو مساس بجميع المسلمين والمسيحيين ، فقد فتحها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) روحيًّا ليلة الإسراء والمعراج ، وصلى بالأنبياء إمامًا بالمسجد الأقصى، ثم افتتحها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

إن حتمية الاصطفاف الوطني والعربي والإسلامي ضرورة لبقاء الأمة وحماية مقدساتها وحفظ كرامتها وتحقيق عزتها ، وهو مبدأ أصيل من مبادئ الإسلام ، فنحن في أمس الحاجة أن نصطف جميعًا ، خاصة والعالم حولنا يتكتل ولا يحترم إلا الأقوياء المتحدين.

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إن الاصطفاف الوطني والعربي يعنى التعاون الحقيقي من أجل البناء ، وتقوية وحدة الأمة ، ومواجهة الأخطار التي تهددنا جميعًا بتكامل الجهود ، وحشد الطاقات والتكاتف ، والتعاون لاستئصال قوى الشر ، والعمل على نشر سماحة الإسلام ، وتحقيق الحياة الكريمة الآمنة ، فاللبنة ضعيفة بمفردها قوية بأخواتها في الجدار الواحد لا يسهل تحطيمها.

إن الأمة العربية الإسلامية الآن تمر بمنعطف خطير يستوجب من الجميع أن يكونوا يدًا واحدة، والمصير العربي المشترك ، يُحتم علينا أن نكون صفًّا واحدًا؛ لأنَّ العوامل التي تربط بيننا من الدين واللغة والقومية العربية والجوار والمصالح المشتركة، تلزمنا جميعًا أن نكون متحدين في مواجهة التحديات.

على أن هناك مشتركًا آخر ينبغي أن نعمل من خلاله ، وهو المشترك الإنساني لدى محبي السلام ورافضي العنف والإرهاب من أحرار العالم، مما يتطلب اصطفافًا إنسانيًّا عاجلًا وسريعًا ، لدحر قوى الشر والإرهاب، وتحقيق السلام العالمي لصالح الإنسانية جمعاء .

* * *

الدفاع عن الدولة والوطن وحماية دور العبادة
في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فمما لا شك فيه أن للوطن قيمةً ومكانةً سامية ، فحبّه والانتماء إليه فطرةٌ جُبلت عليها النفس البشرية ، وهو واجب تفرضه الوطنية ، ويؤصله الشرع الحنيف ، وأكدت عليه جميع الشرائع السماوية ، ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في حب الوطن ، وجسَّد ذلك في موقف رائع يُعلي من قيمة الوطن ، ويرغب في الانتماء إليه ، حيث قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند هجرته مخاطبًا مَكَّةَ : (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجتُ) (الترمذي)، وعندما هاجر (صلى الله عليه وسلم) إلى المَدِينَةِ المنورة ، واستوطن بها ، دعا الله (عزّ وجلّ) أَنْ يُحبِّبَ إِلَيْهِ وَطَنَهُ الثَّانِي ، وأن يحقق له فيه الأمن والاستقرار ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَينَا المَدِينَةَ ، كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَو أَشدَّ) (متفق عليه).

ومن حقوق الوطن علينا : أن نتكاتف جميعًا للحفاظ عليه ، والدفاع عنه من أعدائه الذين يتربصون به ، ويريدون إحداث القلاقل والفتن

وإثارة المخاوف والاضطراب فيه ، وأن نعمل على ردع كلِّ حاقدٍ أو متربصٍ تسول له نفسه أن ينال من هذا الوطن أو منشآته وممتلكاته ، أو مواطنيه ، فالدفاع عن النفس والوطن حق من حقوق الإنسان تكفله الشرائع الدينية ، والمواثيق الدولية ، ويقره الإسلام ، فلقد شُرع الجهاد في الإسلام لردّ الظلم والعدوان ، وحماية للأوطان والمقدسات والحرمات والأعراض من أن تنتهك، قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

كما شُرع الجهاد للمحافظة على السِّلم والأمن المجتمعي والعالمي ، فإذا تحقق السلام العادل فهو المقصد والمبتغى ، حيث يقول الحق (سبحانه وتعالى): {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال: ٦١]، ويقول (عز وجل): {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ٢٠٨].

والمتأمل في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) يجد أن جميع الغزوات التي شارك فيها كانت دفاعًا عن الوطن ، وعندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستشعر الخطر كان يبادر بإفساد مكر الأعداء ، وإبطال حيلهم ، وردِّ عدوانهم بخطوات استباقية ، تحفظ للوطن هيبته ومكانته ، وتحفظ للمجتمع أمنه واستقراره ، مع التزام التوجيه القرآني الواضح في قوله تعالى : {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: ١٩٠].

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، غزوة بني لحيان، وسببها أن بني لحيان غدروا بعشرة من الصحابة بالرَّجيع ، وتسببوا في استشهادهم، فخرج إليهم النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وفي غزوة الغابة كان جماعة من أعراب نجد من بني فزارة قد أغاروا على إبلٍ للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد ، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم.

وفي غزوة دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها ، فبادرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) للقضاء علي شرهم وبغيهم.

وفي غزوة بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ردًا لبغيهم وعدوانهم أيضًا.

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، فكان لا بد من مواجهتهم وكف شرهم.

أما غزوة مؤته فكانت ثأرًا لقتل الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي (رضي الله عنه) رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر فأوثقه رباطًا ، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل – ولا يزال – من أشنع الجرائم وأبشعها ، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على النبي (صلى الله عليه وسلم) فجهز جيشًا ووجهه إليهم.

وفي غزوة حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البادئة بالعداء، وأعدت العدة للانقضاض على المسلمين، وقد سار مالك بن عوف النّصري على رأس جيش حتى وصل إلى القرب من مكة ، فكان لا بد من مواجهتهم ورد بغيهم وعدوانهم.

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث بَيَّتوهم وقتلوهم غدرًا عند ماء بالقرب من مكة يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة مستغيثًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ) فما برح حتى مرت سحابة في السماء فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب) ، وكان فتح مكة (السيرة النبوية لابن هشام).

إن الدفاع عن النفس والوطن حق من حقوق الإنسان كفلته الشرائع السماوية، والمواثيق الدولية، وحثَّ عليه الإسلام ، وقد بشر نبينا (صلى الله عليه وسلم) حراس الوطن بأن النار لن تمس أجسادهم ، فقال: (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ) (الترمذي).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إذا كانت حماية الدولة والوطن مطلبًا عامًّا ، فإن حماية دور العبادة والحفاظ على قداستها واجب شرعي ووطني ، فدور العبادة في الإسلام لها منزلة رفيعة، ومكانة عظيمة، وأهمية بالغة ؛ لذا كان أول عمل للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد وصوله إلى المدينة المنورة هو بناء المسجد ، فالمسجد هو المركز الأول الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية لتعم أرجاء المعمورة، وهو مركز تصحيح المفاهيم الخاطئة وبيان صحيح الدين ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْمَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيٍّ وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ كَانَ الْمَسْجِدُ بَيْتَهُ بِالرَّوْحِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ) (المعجم الكبير).

والمسجد هو بيت الله (عز وجل) له حرمته وقدسيته ، فهو أحب البقاع إلى الله (سبحانه)، كيف لا ؟ وهو مهبط لنزول الرحمة والسكينة ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) (صحيح مسلم)، ولقد أضافه الله تعالى إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم وتكريم ، فقال جل شأنه: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلاَ تَدْعُوْا مَعَ اللهِ أَحَدًا} [الجن: ١٨] ، وتوعد من سعى في خرابه أو حال بين الناس وبين أداء العبادة فيه بالعذاب الشديد ، فقال تعالى : {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ١١٤] ، وقال

تعـالى في شـأن المسجد الحرام : {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: ٢٥].

إن علاقة الإنسان بدور العبادة على مرِّ التاريخ علاقة تعظيم وتوقير وإجلال ، وعلاقة عبادة وخشوع ، ويظهر ذلك التوقير في مراعاته قدسيتها ورعاية حرمتها وحمايتها.

وكما حمى الإسلام المساجد فإنه حمى الكنائس أيضًا ، وجعل حماية الكنائس واجبة علينا كحماية المساجد سواءً بسواء ، فحماية دور العبادة من مقاصد العمران الإسلامي .

وإذا نظرنا إلى التطبيق العملي في الإسلام لحماية دور العبادة فنجد في عهده (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران الأنموذج الأمثل ، فقد حمى كنائسهم وحذر من هدمها ، فقال : (... على أن لا تُهْدَمَ لهم بِيعَةٌ ، ولا يُخْرَج لهم قَسٌّ، ولا يُفتَنوا عن دينهم ما لم يُحدِثوا حَدَثًا أو يأكلوا الربا) (سنن أبي داود).

ويقول الإمام ابن حزم (رحمه الله): "إن من كان بيننا من غير المسلمين وجاء من يقصدونهم بسوء وجب علينا أن نخرج لحمايتهم ، وأن نموت دون ذلك ، لا أن نستحل دماءهم أو أموالهم أو أعراضهم" (مراتب الإجماع لابن حزم).

ولقد ضرب لنا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أروع الأمثلة في ذلك بامتناعه من أن ينزع من نصارى بيت المقدس كنائسهم وأن يحافظ لهم عليها ويوثق ذلك لهم فيما أصبح يشتهر باسم (العهدة العمرية)، وعلى ذلك جرى عمل المسلمين عبر تاريخهم المشرف

وحضارتهم النقية وأخلاقهم النبيلة السمحة، منذ العصور الأولى ، فمن مات منا دفاعًا عن الكنيسة كمن مات دفاعًا عن المسجد، فالمسلم الوطني يحمي الكنيسة كما يحمي المسجد ، والمسيحي الوطني يحمي المسجد كما يحمي الكنيسة في دولة المواطنة المتكافئة ؛ لأننا جميعا شركاء في الوطن والمصير .

ونؤكد أن ما حدث يوم الجمعة الماضي من استباحة لمسجد الروضة بسيناء ، واستحلال قتل الآمنين المتعبدين ، لحدث جلل تمقته جميع الأديان والشرائع ، وتجرمه كل القوانين ، وترفضه الإنسانية ، فمن قاموا بهذا العمل الإرهابي الغاشم هم مجموعة من الخونة والعملاء المأجورين الذين لا يرقبون في الخلق إلاًّ ولا ذمَّة ، ولا يفرقون في استهدافهم بين مسلم وغير مسلم ، ولا بين مسجد وكنيسة ، مما يتطلب الوقوف صفًّا واحدًا للقضاء عليهم وتخليص الإنسانية كلها من شرهم وفسادهم وإفسادهم، واجتثاث شجرتهم الخبيثة من بلادنا وتطهير الأرض كلها من دنسهم وشرهم.

*   *   *

حماية الأوطان بين فرض العين وفرض الكفاية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: ١٩٠]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن من واجب الوقت وفقه الأولويات ما يحتم على جميع أبناء الوطن المخلصين المدركين لطبيعة المرحلة ، وحجم التحديات التي تتعرض لها البلاد أن يقفوا جميعًا صفًّا واحدًا للدفاع عن الوطن ، وحمايته من أي عدوان ، كيف لا؟ وحبُّ الأوطان والولاءُ لها طبيعةٌ فطريةٌ ، وشعورٌ غريزيٌ ، فالانتماءُ إلى الوطن نعمة من أجلِّ نعم الله علينا ، فالوطن هو مهد الإنسان ومرتع صباه ، فيه ولد ونشأ ، وعلى أرضه تربّى، ومن خيره ترعرع وكبر ، وإذا أردتم أن تعرفوا قيمة الوطن فاسألوا من فقد وطنه عن ذلك .

إن المتأمل في جوهر الرسالات السماوية ليلحظ بوضوح أنها جاءت داعية إلى حب الأوطان وجعلته فريضة دينية، فها هو نبي الله إبراهيم (عليه السلام) يطلب في دعائه الأمن لأهله ووطنه ، فيقول كما يقصّ علينا القرآن الكريم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة: ١٢٦]،

ويوم أن أُخرِجَ النبيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من وطنه، وقف بالحزورة (تل مشرف على البيت الحرام) وهو على ناقته، يقول: (وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ) (صحيح مسلم)، وعندما استقر (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في المدينة تضرع إلى الله داعيًا : (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا وَصَاعِنَا) (صحيح البخاري)، فدعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) لنفسه ولأصحابه بحب المدينة ، والمباركة في مدّها وصاعها يعلمنا حبَّ الأوطان ، وقيمة الانتماء إليها.

وكما أن حبّ الأوطان فريضةٌ دينيةٌ فكذلك حمايتها والدفاع عنها فريضة دينية، وواجبٌ وطنيٌ، ولا أدلّ على ذلك مما قام به النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من إبرام وثيقة المدينة بينه وبين الطوائف المختلفة التي كانت تسكن المدينة بهدف حمايتها والدفاع عنها ، وتُعرف تلك الوثيقة بمعاهدة الدفاع المشترك ، بل إن الجهاد في الإسلام ما شرع إلا لردّ الظلم والعدوان ، وحماية الأوطان والأعراض والمقدسات، فالحرب ليست غاية ولا هدفًا في الإسلام ، وأن التضحية بالنفس والمال دفاعًا عن الأوطان وحرماتها ومقدساتها، ونصرتها هو من صميم الجهاد في سبيل الله ؛ لذا فقد أعلى الله (عز وجل) من شأن من يبذلون أرواحهم في سبيل الله دفاعًا عن أوطانهم، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة : ١١١].

إن حماية الوطن، والدفاع عنه، والحفاظ على أمنه واستقراره ضد قوى الشر منهج نبوي أصيل ، قام به النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بنفسه ، وربّى عليه أصحابه، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ ، وَهُوَ يَقُولُ : (لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا) وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ ، فَقَالَ : (لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا) (متفق عليه).

والمتدبر في سيرة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يجد أن جميع الغزوات التي شارك فيها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كانت دفاعًا عن الوطن وردًّا لعدوان أعدائه ، ففي غزوة أُحد أراد المشركون أن يستبيحوا حرمة المدينة، وأن يعتدوا على المسلمين في وطنهم، فخرج إليهم النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه، ردًّا للعدوان ، ودفاعًا عن الأرض والوطن.

وفي غزوة الخندق اجتمعت الأحزاب من كل حدبٍ وصوبٍ لحصار المدينة والإغارة عليها ، فكان القتال دفاعًا عن النفس، والوطن، والعرض، وهو ما يصوره الحق سبحانه وتعالى بقوله : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب:٩ـ١١].

وفي غزوة دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعدّ لاستهداف قوافل المسلمين بالمدينة ، وفي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ كانت قبائلهم تعد للهجوم على المدينة فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ردًّا لبغيهم وعدوانهم، وفي غزوة خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين ، وكانوا هم أنفسهم يستعدون لقتال النبي (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، فكان لابد من مواجهتهم وكفّ شرهم .

على أنه ينبغي أن نعلم أن حماية الأوطان والدفاع عنها ، إما أن يكون فرض عين وإما أن يكون فرض كفاية ، ففي أوقات الأمن والاستقرار والطمأنينة يكون الدفاع عن الأوطان واستقرارها وسلامتها فرض كفاية ، فتقوم القوة المتمثلة في رجال الجيش والشرطة البواسل بالدفاع عن الوطن وتأمينه ، ويجب على الناس أن يؤمنوا احتياجات الجيش والشرطة ، وأن يقدموا لهم الدعم المادي والمعنوي ، إسهامًا منهم في حماية الوطن والدفاع عنه ، أما في اللحظات الصعبة والحرجة التي تتعرض لها الأوطان بالفعل لمحاولات احتلال ، أو غزو ، أو عدوان ، أو أي عمليات إرهابية ، فإن الأمر يتحول من فرض الكفاية إلى فرض العين ، أي أنه يجب على كل أبناء الوطن أن يكونوا على أهبة الاستعداد، فمن استُدعي وجب عليه أن يُلبي، وهو ما يسمى في العسكرية الحديثة بالتعبئة العامة ، حيث يكون الجميع على استعداد في أي وقت لتلبية نداء الواجب الوطني .

وكذلك تقديم كل أنواع الدعم والمساندة لأفراد القوات المسلحة والشرطة في التصدي لمن يستهدفون ، أو يهددون أمن الوطن واستقراره ، وهو صورة من صور التعاون التي أمرنا الله تعالى بها ، حيث قال : {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢]، والدعم إما أن يكون دعمًا مباشرًا ، بالنفس والمال ، وإما أن يكون دعمًا غير مباشر ، بالكلمة الطيبة ، والدعاء الذي هو سلاح المؤمن ، وإشاعة روح التضحية والفداء ، وقيام كل إنسان بدوره ، ومسئوليته التي كلفه الله تعالى بها ، مع محاربة كل الشائعات التي تحاول النيل من حماة الوطن، وتصيب المواطنين باليأس والإحباط .

وقد فَقِهَ الصحابة (رضي الله عنهم) ذلك فقدموا كلّ غالٍ ونفيسٍ لحماية وطنهم ودولتهم ، فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يتصدق بماله كله في سبيل الله، وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يتصدق بنصف ماله ، فيقول : أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومًا أن نتصدق ، فوافق ذلك مالًا عندي ، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قلت: مثلَه، قال: وأتى أبو بكر (رضي الله عنه) بكل ما عنده، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسابقك إلى شيء أبدًا (سنن أبي داود).

وهذا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يشتري بئر رومة من يهودي كان يمنع المسلمين من مائه ، ويجعلها عثمان صدقة لله (عز وجل) ، حتى

لا تتحكم يهود في مصدر شرب المسلمين ، كما أنه (رضي الله عنه) جهَّز جيش العسرة في غزوة تبوك ، حتى قال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (ما ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ) (سنن الترمذي).

وما دُعي المؤمنون للدفاع عن وطنهم إلا لبّوا نداء الواجب الوطني، فما أحوجنا اليوم إلى استحضار هذه الروح وتجسيدها واقعًا عمليًّا؛ لتحقيق الانتماء والولاء للوطن ؛ وليكون ذلك مثالًا يحتذى به.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسـوله ، اللهـم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إن حماية الأوطان لا تقتصر على مواجهة العدوان ، بل تمتد إلى مناهضة كل فكر متطرف ، أو محاولة لاستقطاب البعض لمصلحة أصحاب الأهواء المشبوهة، وكذلك المحافظة على أسرارها الداخلية ، وعدم التعامل مع أعداء الوطن ، ومن يريدون به السوء ، أو ينفثون سمومهم في أجواء المجتمعات بغيًا وعدوانًا ، فواجب أبناء الوطن أن يكونوا عيونًا ساهرة لحماية أمن الوطن ، وأن يتضامنوا في درء أي خطر يتهددهم ، وأن يتكاتفوا لردع من تسول له نفسه أن يهدد هذا الوطن ، وأن يكونوا يدًا على من سواهم .

وإننا من مكاننا هذا نوجه رسالة دعم وتأييد إلى أبناء الوطن الشرفاء من رجال القوات المسلحة والشرطة البواسل ، ونقول لهم : لستم وحدكم ،

فنحن جميعًا معكم وفي ظهوركم ، وعن أيمانكم وعن شمائلكم صفًّا واحدًا، فأكثر من مائة مليون مصري من خلفكم ، وكلنا ثقة في وطنيتكم ، وحرصكم على الشهادة حرص غيركم على الحياة ، وقدرتكم على تحقيق النصر (بإذن الله تعالى).

كونوا على يقين بأنكم في قلوبنا ، وبأن النصر حليفكم ؛ لأنكم تدافعون عن قضية عادلة ، وهنيئًا لكم ما وعد به رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المرابطين ، حيث قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) (صحيح البخاري)، وقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ) (صحيح مسلم)، وقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (مسند أبي يعلى)، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِلَيْلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟ حَارِسٌ حَرَسَ فِي أَرْضِ خَوْفٍ، لَعَلَّهُ أَنْ لَا يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ) (سنن النسائي الكبرى). ولله در شوقي حين قال :

بِلادٌ مـاتَ فِتيَتُهـا لِتَحيـا وَزالُـوا دونَ قومِهِـمُ لِيَبقَـوا

كما نؤكد لجميع أبناء الوطن أن الشجاعة لا تدني أجلًا بعيدًا، وأن الجبن لا يطيل أجلًا قد حان وقته ، وكان من نصيحة أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد (رضي الله عنهما): " احْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوهَبْ لَكَ الْحَيَاةُ " ، وخاض خالد بن الوليد (رضي الله) بعدها الكثير من المعارك ،

وبعد حياة طويلة بين قتال في الجاهلية وجهاد في الإسلام نام خالد بن الوليد (رضي الله عنه) على فراش الموت ، فبكى ثم قال: " مَا فِي جَسَدِي شِبْرٌ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ ؛ فَهَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبُنَاءِ"(المجالسة وجواهر العلم للدينوري)، وإنها والله لإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة .

فلنسأل الله (عز وجل) الشهادة بصدق حتى يبلغنا إياها، قال: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ) (صحيح مسلم) ، فما أجلَّ أن يموت الإنسان فداءً لدينه ووطنه، ودفاعًا عن أرضه وعرضه، فما بالكم إذا كان هذا الوطن مصر التي ذكرها الله (عز وجل) في كتابه ، ونوّه بشأنها ومنزلة أهلها رسولُ الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وأوصى بها أصحابه الكرام ، فهي محفوظة بحفظ الله ، ومرعية بعينه (عز وجل).

* * *

فضل الدفاع عن الأوطان
والعمل على وحدة صفها

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩-١٧١]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فإن الوطن نعمة من أجلِّ نعم الله تعالى على الإنسان ، وحب الناس لأوطانهم أمر فطريٌّ شجع عليه الإسلام ، ورغب فيه ، وأولاه عناية واهتمامًا كبيرًا ، وليس أدلّ على ذلك مما قام به النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من إبرام وثيقة المدينة بينه وبين الطوائف المختلفة التي كانت تسكن المدينة بهدف حمايتها والدفاع عنها .

فالدفاع عن الوطن وحمايته مطلب شرعيٌّ ، وواجبٌ وطنيٌّ على كل من يعيش على أرضه ، ويستظل بسمائه ؛ لأن استقرار الأوطان ضرورة لتحقيق غاية الله من الخلق في إعمار الكون ، ورفعة الدين ، وإقامة شعائره، وما شرع الجهاد في الإسلام إلا دفاعًا عن الأوطان وردًّا للظلم

والعدوان ؛ لذا فقد أعلى الله (عز وجل) شأن من يبذلون أرواحهم في سبيل الله دفاعًا عن أوطانهم ، فقال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة: ١١١].

والشهادة في سبيل الله دفاعًا عن الوطن منزلة من أرقى المنازل التي تجعل صاحبها في معية الأنبياء والصديقين ، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩]، ويقول سبحانه : {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] ، وبشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حُرَّاس الوطن الذين يضحون بأنفسهم دفاعًا عن وطنهم بالأمان من العذاب يوم القيامة ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله) (مسند أبي يعلى) ، فذكر (صلى الله عليه وسلم) الجزء وأراد الكل ، حيث ذكر العين وأراد الجسد .

ولقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الدفاع عن الأوطان منهج حياة وتربية ربَّى عليه أصحابه (رضي الله عنهم أجمعين) ، وضرب (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في الدفاع عن الوطن ، والمسارعة في حمايته ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يتصدر المواقف دفاعًا عن وطنه،

فعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: (لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا) ، ثُمَّ قَالَ: (وَجَدْنَاهُ بَحْرًا) ، أَوْ قَالَ : (إِنَّهُ لَبَحْرٌ) (متفق عليه).

والمتدبر في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) يجد أن جميع غزواته (صلى الله عليه وسلم) كانت دفاعًا عن الوطن ، وردًّا لعدوان أعدائه عنه ، ففي غزوة أحد أراد المشركون أن يستبيحوا حرمة المدينة ، وأن يعتدوا على المسلمين في وطنهم ، فخرج إليهم النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه دفاعًا عن الأرض ، والعرض ، وردًّا للعدوان.

وفي غزوة الخندق اجتمعت الأحزاب من كل حدبٍ وصوبٍ لحصار المدينة والإغارة عليها ، فكان القتال دفاعًا عن النفس ، والوطن، والعرض، وهو ما يصوره الحق سبحانه وتعالى بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا*هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب:٩ــ١٠].

وفي غزوة خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين، وكانوا هم أنفسهم يستعدون لقتال النبي (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، فكان لابد من مواجهتهم وكفّ شرهم .

كما ضرب الصحابة (رضوان الله عليهم) أروع الأمثلة في الدفاع عن أوطانهم ، فهذا سيدنا حنظلة "غسيل الملائكة " (رضي الله عنه) يضحي بنفسه دفاعًا عن وطنه ليلة عرسه ، فرآه رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في القتلى فقال : (إِنَّ صَاحِبَكُمْ تُغَسِّلُهُ الْمَلَائِكَةُ)، فَسَأَلُوا صَاحِبَتَهُ فَقَالَتْ : إِنَّهُ خَرَجَ لَمَّا سَمِعَ الْهَائِعَةَ وَهُوَ جُنُبٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لِذَلِكَ غَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ) (سنن البيهقي الكبرى).

وهذا أنس بن النضر (رضي الله عنه) يضحي بنفسه دفاعًا عن دينه ووطنه ، فعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ ، فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ)، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ ، وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ ، قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ- وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِي المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ) فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، فَقَالَ: (يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ ، الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ) ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ قَالَ أَنَسٌ : " كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: {مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} (صحيح البخاري).

وهذا سيدنا عمرو بن الجموح (رضي الله عنه) ضحى بنفسه رغم عرجته ، وخرج مدافعًا عن دينه ووطنه ، فجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمَ أُحُدٍ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ قُتِلَ الْيَوْمَ دَخَلَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ: (نَعَمْ) ، قَالَ: فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي حَتَّى أَدْخُلَ

الْجَنَّةَ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) : يَا عَمْرُو ، لَا تَأَلَّ عَلَى اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَهْلًا يَا عُمَرُ ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ : مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ ، يَخُوضُ فِي الْجَنَّةِ بِعَرْجَتِهِ) (صحيح ابن حبان) .

فهنيئًا لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وضحوا بأرواحهم وأنفسهم في سبيل الله دفاعًا عن أوطانهم ، ورفعة لبلادهم ، فخلد التاريخ ذكراهم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

إخوة الإسلام:

إننا حين نتحدث عن فضل الوطن ، وشرف الدفاع عنه ، والتضحية من أجله ، والشهادة في سبيله لا يمكن أن ننسى أن قواتنا المسلحة الباسلة قدمت ولا زالت تقدم أروع الأمثلة في الحفاظ على وحدة الوطن ، وسلامة أراضيه ، والتصدي لأي يدٍ خائنة ، أو حاقدة ، أو حاسدة تريد أن تعبث بأمنه ، أو تنال من استقراره ، ولا أدل على ذلك من الجهود التي بذلت ولا زالت في مواجهة قوى الشر والإرهاب .

فسيناء هي الأرض المباركة الطيبة التي خلد الحق سبحانه وتعالى ذكرها في كتابه الكريم ، حيث يقول سبحانه في إشارة إلى بعض ما فيها من الخيرات والبركات: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ

وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ} [المؤمنون: ٢٠]، وهي أرض الوادي المقدس طوى ، والبقعة المباركة التي ورد ذكرها في ثنايا الحديث عن سيدنا موسى (عليه السلام) حيث قال سبحانه: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه:١١ـ ١٢] ، وقال سبحانه: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: ٣٠].

بل لقد أقسم الحق (سبحانه وتعالى) في كتابه العزيز بطور سيناء في سورة سُميت باسمه وهي سورة (الطور) ، مقدمًا القسم به على ما سواه من الأمور الأخرى المقسم بها مع ما لها من مكانة أو قدسية فقال تعالى : {وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور:١ـ٦] ، وأقسم الحق سبحانه وتعالى به صراحة محددًا ومخصصًا في كتابه العزيز في سورة (التين) ، فقال عز وجل: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين:١ـ٤] ، فجمع في القسم بطور سنين مع القسم بالبلد الأمين ، مع ما لهذا البلد الأمين من قداسة ومكانة.

إن هذه المكانة التي اختص الله (عز وجل) بها سيناء توجب علينا جميعا أن نجعلها في قلوبنا ، وأن نحميها ونفديها بكل ما نملك ، ولا شك

أن قواتنا المسلحة الباسلة تحمل ذلك بشجاعة فائقة على عاتقها ، وقد قدَّمت وما زالت تقدم تضحيات غالية من دماء أبنائها في سبيل الوطن بصفة عامة ، وفي سبيل الحفاظ على سيناء وتطهيرها من العناصر الإرهابية والإجرامية بصفة خاصة ، وهو ما يستحق التحية والتقدير .

على أن مواجهة الإرهاب تتطلب أن نقف صفًّا واحدًا في مواجهة قوى الإرهاب والشر ، بحيث لا نترك بيننا فرصة لخائنٍ ، أو عميلٍ ، أو مأجورٍ على حساب الوطن .

كما يتطلب منا مضاعفة الجهد في العمل والإنتاج ، فيدٌ تحمي وتحرس ، وأخرى تنتج وتبني وتعمر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ) (متفق عليه) .

فإذا كانت مهمة الإنسان في هذه الحياة هي إعمار الأرض ، فإن ذلك لن يتحقق إلا بالعمل الصادق ، والجهد الخالص لآخر لحظة من لحظات الدنيا ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ) (مسند أحمد).

*   *   *

الجوانب الإنسانية في خطبة حجة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الدين الإسلامي هو دين القيم في أسمى معانيها ، دينٌ يحترم آدمية الإنسان وإنسانيته بغض النظر عن دينه أو لونه ، أو عرقه ، أو جنسه ؛ حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠].

ولقد أرسل الله (عز وجل) رسوله (صلى الله عليه وسلم) برسالة إنسانيَّة ، تدعو إلى القيم الفضلى ، والمُثل العليا ، فقام (صلى الله عليه وسلم) بتبليغ رسالة ربه (عز وجل) على أكمل وجه ، وأتم صورة ، فظل طوال حياته يرسخ للقيم الإنسانية بقوله وفعله وتقريره ، وفي حجة الوداع وبعد أن استقر التشريع ، وكمُل الدين ، وتمت النعمة، ورضي الله لنا الإسلام دينًا ، أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على ترسيخ هذه القيم الإنسانية في نفوس المسلمين وقلوبهم من خلال خطبته (صلى الله عليه وسلم) التي أرسى فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها مبادئ الجاهلية ، وعَظّمَ فيها الحُرمات ، وأعلى فيها من شأن الإنسان وقيمته .

ولا شكَّ أن خطبة حجة الوداع تُعد أول وثيقة وإعلان عالمي للحفاظ على حقوق الإنسان ، لما اشتملت عليه من قيم إنسانية تحفظ للإنسان كرامته ، وتحقق له أمنه وسلامته ، فقد وقف النبي (صلى الله عليه وسلم) في جَمْعٍ من الصحابة في لقاءٍ مشهودٍ بين أمَّةٍ ورسولِها ، وهو يَسْتَشْعِرُ مع كل حرف من كلماته دنوَّ أجلِه بعد هذه المناسك ، ليضع اللمسات الأخيرة لدستور المسلمين الإنساني ، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ ابْنِ مُطْعِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ شَهِدَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي يَوْمِ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، فقال فيها: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ فَوَعَاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ) (سنن الدارمي)، فتعالوا بنا لنقف مع بعض الجوانب الإنسانية التي اشتملت عليها هذه الخطبة الجامعة:

فمن هذه الجوانب الإنسانية ، **ترسيخ مبدأ المساواة والكرامة الإنسانية** بين الناس جميعًا كحق أصيل للإنسان يحفظ كرامته في المجتمع الذي يعيش فيه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) في خطبته: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ...) (شعب الإيمان للبيهقي) ، فجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح ؛ امتثالًا لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

فالبشرية كلها سواسية دون تمييز طبقي ، أو تعصب قبلي ، أو مذهبي ، فالناس جميعًا ينتمون لأصل واحد ، وأب واحد ، هو آدم (عليه السلام) ، فمبدأ المساواة بين الناس مبدأ شرعي ، وقيمة إنسانية تحقق التوازن في الأسرة والمجتمع ، فإذا انتُهك هذا المبدأ بين أفراد الأمة عمَّت الفوضى في المجتمعات ، وانتشر الفساد بين الناس .

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) حريصًا على ترسيخ هذا المبدأ طوال حياته ، فقد أزال (صلى الله عليه وسلم) فوارق العصبية ، والقبلية بين أطياف المجتمع ، حين قال (صلى الله عليه وسلم): (سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ) (المستدرك للحاكم)، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: (أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا ، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا) (صحيح البخاري)، يَعْنِي سيدنا بلاَلًا (رضي الله عنه) ، وكان (رضي الله عنه) يقول: (لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بلا عمل لهم أولى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) منَّا يوم القيامة) (الطبقات الكبرى لابن سعد).

وكما رسّخ النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ بقوله جعله واقعًا عمليًّا يتعايش به مع جميع الناس على اختلاف معتقداتهم ، ولا أدل على ذلك من قيامه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حينما مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ، فَقِيلَ له: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَلَيْسَتْ نَفْسًا) (متفق عليه)، وعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمْ) ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَهُوَ يَقُولُ: (الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) (صحيح البخاري).

ومن هذه الجوانب الإنسانية **التي أرستها خطبة حجة الوداع حرمة الدماء والأموال والأعراض** ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبيهِ (رضي الله عنه) ذَكَرَ أنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ) (متفق عليه)، فقد دلت هذه الكلمات البليغة ، بهذا الأسلوب النبوي البديع على عِظم حرمة الدماء ، والأموال ، والأعراض وعصمتِها ، وأنه لا يحل الاعتداءُ عليها بأيِّ نوع من أنواع الاعتداء ، فكل الدماء حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة .

فقد لفت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتباه أصحابه (رضي الله عنهم) لهذا اليوم العظيم ، وذَكَّرهم بحرمته ، وحرمة الشهر ، وحرمة البلد تقريرًا لما ثبت في نفوسهم من تعظيمها ؛ ليبني عليه ما أراد تقريره وتأكيده من عظم حرمة الدماء والأموال والأعراض ، وليؤسس لمجتمعٍ حضارِيٍّ مستقِرٍّ ، تسودُهُ الأُلْفَةُ ، وتُرْاعَى فيهِ الحرمةُ ، ويأخُذُ فيهِ كلُّ ذِي حقٍّ حقَّهُ ، وتقوم العلاقةُ بيْنَ أفرادِهِ علَى التعاونِ والتراحُمِ ، لينهضُوا فِي نسيجٍ واحدٍ مُتلاحِمٍ، لا يحلُّ فيه لأحد أَنْ يعتدِيَ علَى أحد بأيِّ شكلٍ مِنَ أشكال الاعتداء .

ومن المعلوم أن حفظ الدماء والأعراض والأموال لا تمييز فيه في الإسلام بين مسلم وغيره ؛ لأن الشريعة كفلت ذلك لكل إنسان بغض النظر

عن دينه ، أو جنسه ، أو لونه ، قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١] ، بل جعل الله (عز وجل) قتل نفسٍ واحدة بغير حق كأنه قتلٌ للبشرية كلها، قال تعالى: {... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢] ، فلاَ يحلُّ لإنسان أَنْ يعتدِيَ علَى أخيهِ بأي نوع من أنواع الاعتداء ، أو أن يتعرضَ لهُ بأي لون من ألوان الإيذاءِ ، لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) (صحيح مسلم)، فأمر الدماء في الإسلام عظيم، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ) (سنن ابن ماجه) ، فالإسلام يدعو إلى الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، ويريد للناس جميعًا أن يحيوا حياة مستقرة ، ولا يتحقق لهم ذلك إلا بحقن الدماء والحفاظ على الأعراض والأموال.

ومن الجوانب الإنسانية في خطبة حجة الوداع **وصيته (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة** ، والحفاظ على حقها ، فقدْ أوصَى (صلى الله عليه وسلم) بالمرأةِ تقديرًا لها ، وبيانًا لمكانتِهَا ، فالنساء شقائق الرجال ، والحقوق والواجبات متبادلة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨] ، ثم أوصى الله (عز وجل) الرجل بحسن العشرة مع المرأة حتى وإن حدث منها ما يُغضبه ، أو رأى منها ما يكرهه ، فقال تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) (سنن الترمذي).

ولا شك أن الإسلام قد أكرم المرأة أمًّا و أختًا و بنتًا و زوجةً ، وجعل لها من الحقوق ما يكفل سعادتها في الدارين ويصونها ويحافظ على كرامتها الإنسانية ، فعندما سُئل النبي (صلى الله عليه وسلم) : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ) (متفق عليه)، وقال: (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا يوم القيامة مِنْ النَّارِ) (سنن ابن ماجه) ، وفي رواية : (مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ بَنَاتٍ ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ أَخَوَاتٍ ، حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُوتَ عَنْهُنَّ ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) (مسند أحمد)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً) (متفق عليه) ، فكلمة (خيرًا) الواردة في الحديث كلمة جامعة مانعة توحي بوجوب التخلق بأسمى معاني الرجولة حين يتعامل الرجال مع المرأة.

كانت هذه بعض الجوانب الإنسانية من خطبة حجة الوداع التي احتوت على الكثير من المبادئ السامية ، والمشاهد الإيمانية الراقية ، والتي يضيق المقام عن ذكرها أو استقصائها، فما أجدر البشرية جمعاء أن

تقف أمام هذا الهدي النبوي العظيم المتمثل في خطبة حجة الوداع التي جمعت في كل ألفاظها ومعانيها الخير للبشرية كلها ، فقد كانت بحق سبقًا في تاريخ البشرية حين أرست قواعد حقوق الإنسان ، ورسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية، فلو تدبَّرها الناس وعملوا بما فيها ، لكانت سببًا في إسعادهم في الدنيا والآخِرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

ما أحوجنا إلى الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخاصة في الجوانب الإنسانية التي لم تعرف الدنيا لها مثيلاً لتستقيم حياتنا ، فلقد كانت بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) مفعمة بالفضائل الإنسانية ، ومكارم الأخلاق ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وأخبر (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الرحمة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) (المستدرك للحاكم)، وبهذه الرحمة والرأفة نجح (صلى الله عليه وسلم) في تأليف قلوب مَنْ حَوْلَه ، وصدق الله حيث قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...} [آل عمران: ١٥٩].

وفي الختام ونحن في هذه الأيام الطيبة المباركة نذكر بسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) بصيام يوم عرفة ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ) (صحيح مسلم).

وكذلك من سنته (صلى الله عليه وسلم) الأضحية على القادر المستطيع، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هِرَاقَةِ دَمٍ، وَإِنَّهُ لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَظْلَافِهَا، وَأَشْعَارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنْ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) بِمَكَانٍ ، قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا) (سنن ابن ماجه).

*   *   *

فهرس الموضوعات

